"أنا وأنتِ"

مجموعة قصصية
أحمد الخميسي
دار" كيان " القاهرة – 2015

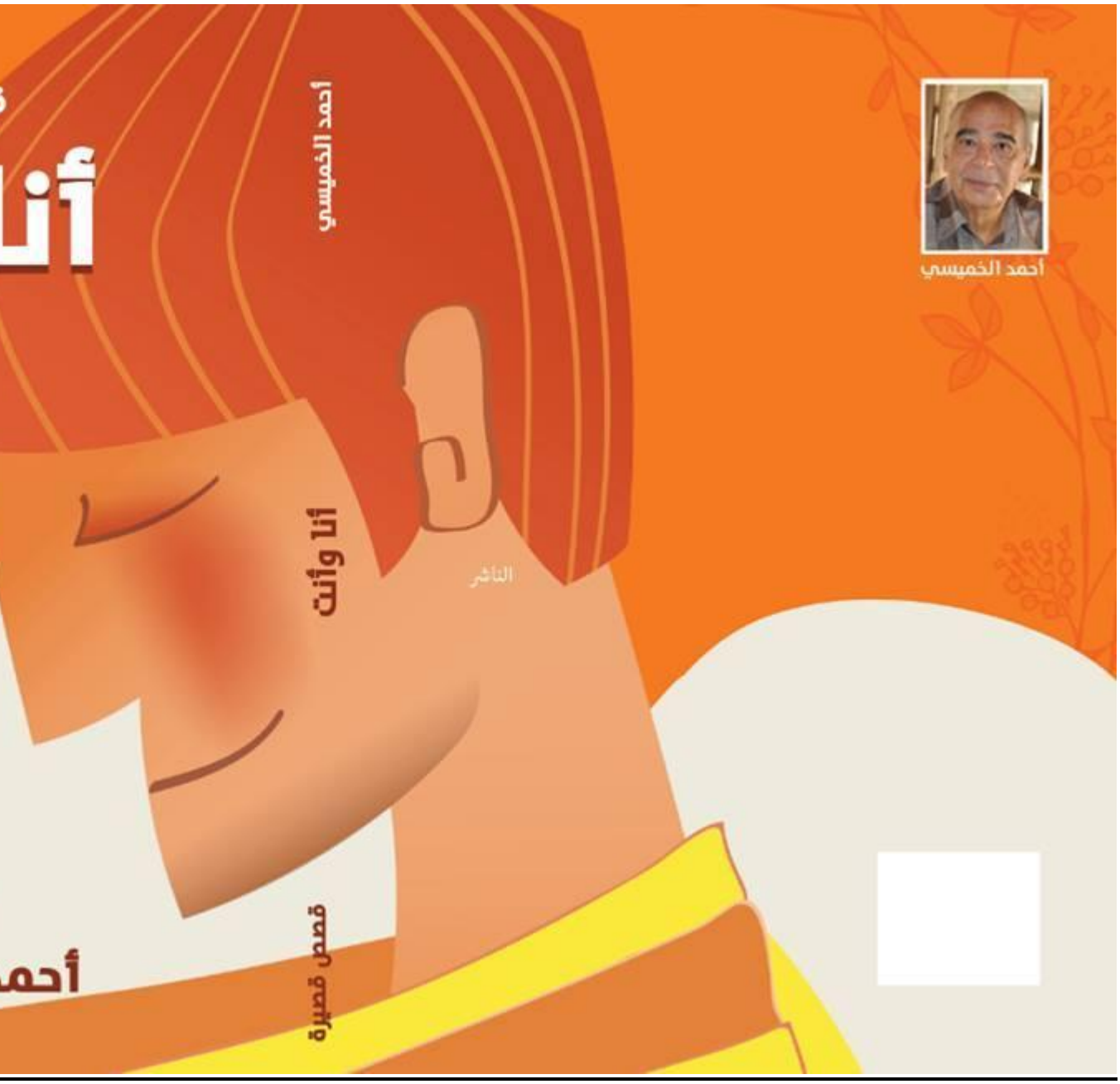

أنا وأنتِ

نجلس أنا وأنتِ إلى المنضدة التي تجمعنا كل يوم، صامتين، كعادتنا منذ سنوات. نستعد للإفطار. أنا وأنتِ. تمدين بصركِ إلى الجدار الأزرق الفاتح خلف ظهري. أتملى وجهكِ بعمق وحب ويأس. أروح وأجيء أجلب أطباق الطعام من المطبخ. يجلد قلبي أمل لا يموت. أجلس أمامكِ. أنا وأنتِ. عيناكِ تنظران بشرود خلف ظهري. لا تريننني. أرفع لقمة إلى فمي ولا أحني رأسي، ليظل وجهك أمامي، فلا يغيب عني حزنك الذي يشبه شعاعًا ينكسر. أنا وأنتِ.

تُفلت من الشرفة هبة هواء تلامس وجهينا بقبلة ثم تنزلق إلي بياض خزف الفنجانين. ثمت ذكريات تتقلب. تطرف بعينيها. تتمطى بكسل على سرير الزمن. ثمت قلق ومحبة وعزلة مؤلمة. ينتفض النبض في شريان رقبتك التي كانت تغمر وجهي بالعرق من انفعالك وهي تتلوى مثل طائر يحترق. تجري إلينا من فروع الشجر الممتدة إلى الشرفة سعادة، فنشعر أنا وأنتِ أننا كتلة واحدة اقتطعها القدر من صخرة عريقة، من برق قديم، نشعر رغم أنكِ منذ سنوات تمدين بصركِ إلى الجدار خلفي أنه ليس لنا سوانا. أنا وأنتِ. وأن موتنا سيكون كانغلاق عينين في اللحظة ذاتها. لا أحد منا يسبق الآخر. أنا وأنتِ.

تناولتُ قطعة من الجبن. أنتِ لم تمدى يدك إلي سلة الفاكهة. لم تتناولي تفاحة خضراء. لم تمسكي السكين. لم تبدأي في تقشير التفاحة. أخيرًا أنتِ بدأتِ لا تقضمين منها بأسنانك. أصبُ الشاي وأنا أسمع صوت أنفاسكِ. أقلب السكر في فنجانك بالملعقة التي اشتريناها أنا وأنتِ منذ سنوات وكانت مذهبة وانطفأ وهجها. أنظرُ إليكِ. تواصلين التطلع وراء كتفي بحزن. كأننا لسنا سعداء. كأننا لسنا عاشقين. أرتشف رشفة من فنجاني. أنتِ لا تقبضين على يد فنجانك. ثم لن ترفعي الفنجان إلى شفتيك. أخيرًا لن ترتشفي شيئا بهدوئك المعتاد. لو أنني أعلم فقط السر الذي يجعلك بعيدة هكذا؟!! لو أعرف إلى أين تتطلعين طوال الوقت؟

أنهينا إفطارنا. حان الوقت كي لا تنهضي. لا تتجهين إلى المطبخ. لا تقفين هناك تغسلين الأطباق. ألحق بكِ. أناولك الأكواب. لا تأخذينها من يدي. لا تضعينها قرب الحوض. أظل واقفًا خلفكِ أخفق مضطربًا من الشريان الذي فى رقبتك. أطبع قبلاتي على أذنكِ الصغيرة الدقيقة. أرتدي ملابسي لأتجه إلى عملي. أنتِ لن ترافقيني حتى باب الشقة. ستظلين جالسة على المقعد بنظرة شاردة. أرجع متأخرًا في المساء ممتلئا بغرامي بك. نتناول العشاء، أنا وأنتِ بقلق ومحبة وعزلة مؤلمة. نتنشق رائحة الخبز الساخن فوق المنضدة. ذكريات في طريقها إلى النوم

تتقلب على السرير. ينتهى يوم طويل جعلنا جزءًا من ذكرياته. يخطر لي أن المخيف في الموت هو الوحدة. مسيرة المرء بمفرده في ذلك الوادي. ذلك لن يخيفنا لأننا معًا. أنا وأنتِ. لأنه كانت لنا لحظات مشبعة بالغرام والعذوبة، بالهواء الذي يتدفق من الشرفة بلون المساء مؤرجحًا أطراف الستارة البيضاء.

أتملى وجهك بحب وعمق ويأس في حجرة النوم. تمدين بصرك من فوق كتفي إلى صوان الملابس. تهبطين برأسك إلى الوسادة. تطفئين المصباح الصغير. يظل قلبي متيمًا بكِ وفيه أمل لا ينتهي. فقط لو تقولين لي مَنِ مِنا الذي مات ولم يعد يرى الآخر؟

***

روح الضباب

تقطعتْ أنفاسه وهو يعدو في الضباب. يجري تنحل الطرق وتذوب جوانبها أمام عينيه وتعلو وتميل. يواصل العدو، ولا شيء سوى صرخات صغيرة من حوله، وفوقه تهرس أذنيه برنين أبيض قاطع. لمح بصيص نور في آخر زقاق عن يمينه. انطلق نحوه وقبل أن يصل إليه تفجر النور أمامه حريقًا هائلاً. تراجع مذعورًا يحمي وجهه بكفيه وركبتاه ترتعدان. تكشفت عمائر من حوله على ضوء ألسنة اللهب. أطلق ساقيه نحوها. انسربْ إلى مدخل أول عمارة صادفته من دون أن يحسب حساب أي شيء. خطفًا ارتقى في العتمة درجات سلم. توقف يلهث أمام باب مصعد حديدي قديم. اندفع يفتحه بقبضة مرتجفة. أضاءت "لامبة" ضعيفة في الكابينة الضيقة. فوجيء بفتاة على أرضية المصعد ظهرها للجدار منكمشة في بلوزة وبنطلون جينز.

– أنتِ؟ ماذا.. ماذا تفعلين؟ من أنتِ؟

حدجتْ فيه بهلع:

– أنا؟!

ضمتْ ركبتيها إلى بطنها وطوقتهما بيديها. أغلق الباب بدفعة من كتفه. أدرك أنها على الأرجح لاذت بمصعد العمارة من الصرخات الحادة في الضباب الأزرق. أرهف السمع وهو ينهج إلى الهواء بعيدًا. مازال الصوت يتدفق لكنْ ممطوطًا تكسرت حوافه. عاد إليها ببصره. وجدها تتطلع إليه برجاء ثم قالتْ بابتسامة مغتصبة:

– وأنتَ؟

هز رأسه بالإيجاب.

سألها وهو يلتقط أنفاسه:

– كم لك من الوقت هنا؟

– ربما يومين أو ثلاثة. لم أعد قادرة على التذكر.

سدد إليها نظرة ليتحقق ما إن كان الصوت قد خبلها.

– هل نمتِ خلال ذلك ولو قليلاً؟

مرتْ بأناملها بين شعرها ترسله للخلف:

ـ لا. لم أنم. كانت عقارب الساعة تدور من الثانية عشرة حتى الثانية عشرة، ثم تبدأ دورة جديدة، وأنا لا أدري أليل هذا أم نهار؟

يتساقط رأسي من التعب وما ألبث أن أفيق على صرخة إنسان يُجن في خيالي أو في الواقع.

امتد موج الصوت يلعق حوائط العمارة. لزم الاثنان الصمت تمامًا. كفا عن الإتيان بأية حركة. راحا يتنصتان على الهواء بتوتر. انحسر الصوت مهزومًا. تنفست الصعداء. قالت:

– الصوت هنا أضعف ما يكون بفضل الجدار الإسمنتي المبنى أمام العمارة. شادوه ساترًا في حرب من الحروب ، بقي على حاله.

هز رأسه بانزعاج:

– في الحرب كل شيء مفهوم. أما الآن فإننا لا نرى العدو ولا نعرف أية حرب نخوض.

دقتْ الأرض بكفها:

– استرح. أستبقى واقفًا هكذا؟

– لن أمكث طويلاً. ما إن يخفت الصوت حتى أخرج.

ابتسمت بألم:

– تخرج إلى أين؟ إلى حيث تنزف أذناك وحيدًا على الأسفلت حتى الموت أو الجنون؟

– لا يمكن أن نقيم هنا إلى الأبد.

– أنا سأبقى. لم تعد عندي قوة ولا قدرة.

تنهدتْ:

– لا أحبُ أن أموت مرمية بجوار بالوعة أو على الرصيف مثل طيور ضربتها عاصفة. يفر الكثيرون، أصابعهم تسد آذانهم يهزون رؤوسهم من الألم وفي النهاية يتساقطون بنظرات ذاهلة.

التفت إليها:

– عفوًا.. ما اسمك؟

– هدى. وأنتَ؟

– حاتم.

خبطتْ الأرض بيدها ثانية:

– استرح على الأقل حتى تحل لحظة مواتية للخروج.

ارتمى بجوارها. أسند ظهره إلى الجدار. كان منهكًا للغاية. جرى يومًا كاملاً والآن يشعر أن ساقيه مثل غصنين مكسورين. اختلس نظرة إل ى جانب وجهها. رغم الإنهاك البادي عليها إلا أن عينيها الواسعتين وملامحها كانت تشع بجاذبية وجمال خاص. أحست نظرته فلمت طرفي البلوزة المفتوحة عند صدرها.

قال:

– لم يمر علينا زمن كهذا. لا ندري فيم نحن غارقون. لا ندري من أين أو إل ى أين نمضى.

قالت تلوك الكلمات ببطء:

– يظن الجميع أن الطمأنينة دائمة، كأنما لا مكان للقلق، ثم يحل وقت تقتص فيه الظلال من النور. أتفهمنى؟

أمعن النظر إلى اللمعة الغريبة التي برقت في عينيها يستوثق إن كانت تهذى من قلة النوم والخوف والتعب.

قالت:

– في الفجر تخفت الأصوات. تصبح عميقة. هل أجد معك سيجارة؟

– لستُ مدخنًا.

– حاجتي إلى سيجارة تعذبني أشد من الجوع.

سألها:

– ألا توجد هنا شقة مفتوحة؟

طرقعتْ بلسانها:

– تؤ. كلها مهجورة وأبوابها مغلقة.

سألتْ:

– كم من الوقت قضيتَ في الشوارع؟

– طيلة اليوم. خرجتُ منذ الصباح أبحث عن "أنسولين" لأمي المريضة بالسكر. لم أجد صيدلية واحدة تعمل. كنتُ أجرى والشوارع تبدو لي مجهولة تكرر نفسها، من دون علامة على الحياة، أندفع أقطع مسافة يمينًا وأخرى يسارًا، أتقدم وأتأخر، لأكتشف أني أرجع إلى النقطة ذاتها.

– أما زالت المدينة على حالها؟

– كل شيء على حاله. الشوارع مهجورة، المحلات مغلقة، محطات المترو، الأسواق، نوافذ البيوت، معتمة، حتى الجو لم يعد يعبره طير ولا نحل كأنه مرسوم في لوحة. في الليل تقف القطط على أفاريز الشرفات. تقوس ظهورها وتنفش شعرها وتموء مواءً طويلاً مرعبًا.

أزاحتْ بطرف قدمها فردة صندل مخلوعة:

– أهلكتني الطرق. يومان كاملان كنتُ كلما تخيلتُ أني وضعتُ قدمي على بداية طريق أجدني حيثما كنتُ، إل ى أن حط عل يَّ اليأس والتعب وشعور عميق بالمرارة.

سرحتْ ببصرها بعيدًا. بدا أنها انفصلت عما حولها للحظة ثم عادت:

– في البداية لم أصدق شيئًا مما قيل مطلع الربيع الماضي حينما بدأت الأصوات تظهر في مناطق متفرقة. لم أصدق ما كتبته الصحف عن أصوات تتشرخ إل ى صرخات صغيرة تشق آذان المارة؛ فينزفون حتى الموت أو الجنون، إل ى أن كانت ليلة سمعتُ فيها مع أخي صراخًا من شقة مجاورة يسكنها مهندس شاب بمفرده. استدعينا حارس العمارة وفتحنا الباب بالقوة، فشاهدنا الرجل يركض بملابسه الداخلية من ركن إلى ركن وهو يصرخ. عندما وجدنا أمامه توقف وتطلع إلينا بنظرة ملتاثة وحين هممنا بأن نتقدم نحوه سارع بإلقاء نفسه من نافذة مفتوحة. حينذاك فقط قلتُ لنفسي لابد أن شيئًا ما يحدث. تذكرتُ في تلك الليلة ما جرى في أبريل 1968حين ظهرتْ السيدة العذراء بعد الهزيمة فوق كنيسة بمنطقة الزيتون. لمحها أحد الخفر على قبة شديدة الانحدار فراح يهتف "نور فوق القبة". واندفع مئات البشر على صيحته ليروا النور الذي هبط من السماء.

مط شفته السفلى بأسف:

– لكن ما يحيط بنا الآن ليس نورًا. وأنا صدقتُ بيان وزارة الصحة حين قالت في البداية: إن الجو مشحون بموجات صوتية مجهولة المصدر وإن الوزارة ستضع مانعات صواعق على أسطح البيوت. لكن الشك أخذ يراودني مع تزايد عدد الوفيات من تسع حالات في الشهر الثاني، إلى خمس عشرة، ثم إلى عشرين. ثم تأكدت أن شيئًا غريبًا يحدث عندما توقفت عن الظهور سيارات الإسعاف التي كانت تجيء في الأيام الأولى ويهبط منها الأطباء بملابسهم البيضاء. بعدها أخذت المدينة تقفر وتعتم يومًا بعد يوم. لم تُجدِ التفسيرات الدينية والسياسية والعلمية بشيء، إذ أن أحدًا مازال لا يدري من أين جاءت الصرخات وإلى متى تدوم؟

– أتسمحين لي أن أمد ساقي لأستريح قليلا؟

نظرتْ إليه بدهشة وعلى شفتيها بسمة صغيرة:

– أهذا بيتي لأسمح أو لا أسمح؟

فرد ساقيه بجوار ساقيها. أحس بركبتيه تستريحان.

– أكنتَ تعمل أم تدرس؟

– أعملُ من البيت. أجمع الأخبار من وكالات الأنباء والصحف وأدرجها في موقع على الإنترنت. أجلس ثماني ساعات يوميًا أمام الكمبيوتر إلى أن تحمر عيناي وتتيبس رقبتي.

لمع فضول في عينيها:

– أية أخبار؟

– كل شيء. بدءًا من فضائح النجوم مرورًا بالاكتشافات العلمية حتى الكوارث الطبيعية والحروب. أقدم للموقع يوميًا مئة وعشرين خبرًا علاوة على تقرير مرة في الأسبوع عن موضوع ما.

– غريب أن يتابع الإنسان الأحداث بوعيه فقط، من ناحية هو في قلب الأحداث تمامًا ومن ناحية هو خارجها تمامًا. يتفرج بالحريق ولا يكتوى بناره كأنه في دار عرض سينمائي.

– أنتِ محقة. لكنه عمل في نهاية الأمر مثل كل الأعمال. وأنتِ؟

قالت:

– أنا طبيبة تخرجت منذ ثلاثة أعوام. أشتغل في مستشفى. كنت أستقبل حالات الولادة وأشهد كل يوم ولادة حياة جديدة، رغم القذارة التي تعم المستشفى ونقص المعدات والأدوية.

لامست كتفه كتفها بالسهو فشملته رجفة خفيفة. خطر له أن يسألها إن كانت مخطوبة وخشى أن تسيء فهمه وهما محبوسان وحدهما.

قال:

– في كل الأحوال هى حالة غريبة نادرة.

عضتْ على شفتها وهي تتنهد:

– أتظن أنها حالة نادرة؟ لقد سُمعت صرخات كهذه منذ عام 1970 في مدينة برستول البريطانية، ثم في مدينة تاوس المكسيكية، وبعد ذلك في اسكتلندا ونيوزلندا وأمريكا والهند وأيرلندا وغيرها. افترض البعض أن الصوت وافد من كوكب آخر. ورد البعض هذا إلى إصابة من يسمعون الأصوات بمرض نفسي أو خلل سمعي، لكن بفحص كل من سمع الأصوات لم تثبت إصابة أحدهم بأي مرض. أتفهمنى؟

اختلس نظرة إلى أذنيها ولم ير أثرًا لأي خيط أحمر يشير إل ى إصابتها. تذكر فجأة أن بجيبه باكو بسكويت. أخرجه. فتح الورقة. كان بها أربع قطع نصفها مطحون. فردها أمامها. التهمتْ القطع الأربع بسرعة القطط ثم لعقت ذرات البسكويت بلسانها. مدتْ يدها وراء ظهرها. سحبتْ زجاجة مياه معدنية ممتلئة إل ى نصفها. دفعتها إليه:

– أتشربْ؟

ابتلع جرعة كبيرة من فم الزجاجة. تناولتها وشربت الجرعة الأخيرة المتبقية. رجتْ الزجاجة ثم ألقت بها قرب قدميها. قالت:

– أحيانًا يشبع المرء من بسكوتة صغيرة.

قال وهو ينطق اسمها لأول مرة:

– يا هدى أنا تابعت بحكم عملي أحداثًا غريبة وأخرى عنيفة. كان هناك دائمًا تفسير لما يجرى حتى وإن كان غير مقبول. ما جرى في البوسنة والهرسك. فظائع معتقل "أبي غريب" بالعراق ومعتقل جوانتنامو التي وصلت حد اختراع تعذيب الإنسان بمحاكاة الغرق. لكنني لا أجد تفسيرًا لما يحدث حولنا. أذكر أن طفلاً من بين آلاف الأطفال السوريين الذين يموتون من البرد والجوع على الحدود التركية قال لأمه قبل أن يموت "سأقول لربنا كل شيء".

حكتْ بأحد أصابع قدمها جنب قدمها الأخرى. قالت ببطء:

– لا يحب أحد أن يقر بأننا مذنبون، أننا نتخبط في ذنوبنا. أتفهمنى؟

حدقتْ به قائلة:

– أتفهمني؟ كان الناس يقتلون ويعذبون أمامنا ونحن نواصل حياتنا كأن شيئًا لم يكن. أي عذاب عانى منه الرجل الصعيدي الذي ألقى بطفليه الصغيرين في النيل بسوهاج لأنه غير قادر على إطعامهما؟ أي عذاب أحسه رجل قبل أن يشنق نفسه بسبب الجوع على عمود لوحة إعلانات كبيرة على طريق القاهرة الإسماعيلية؟ مع ذلك كنا نتجه إلى أعمالنا، ونأكل ونضحك، ونتبادل البسمات. كنتُ أحيانًا أفكر في المحامي الشاب الذي توفي تحت وطأة التعذيب في قسم شرطة، أحاول أن أتخيل شعوره بوحدته، ويأسه عند الموت من أن يدًا ستمتد إليه. إني أستوحش تمامًا في هذا العالم. أتفهمنى؟

رأى عينيها أشبه بغيمتين محملتين بالدمع. مد يديه. أمسك بكفيها يربت عليهما:

– عما قريب تخرجين من هنا. تعودين إل ى بيتك وعملك. وتنسين كل ذلك، تنسين حتى أننا التقينا ذات ليلة في كابينة ضيقة.

ألقتْ رأسها إلى الوراء:

– لا. لن أنسى. لقد تقاسمنا الخوف والحيرة والهواء القليل، فكيف أنسى؟ أتمنى الآن مادمتَ هنا لو استطعت أن أخطف ساعة واحدة من النوم.

حشر ذراعه بحذر بين ظهرها وجدار المصعد. أخذ بدنها كله يرتج ببكاء حار. طوق كتفها. همستْ بتعب:

– سامحني. أتمنى لو نمت ولو عشر دقائق.

– استريحي.

تزحزح ناحيتها قليلاً. وضعتْ رأسها على كتفه. أغمضتْ عينيها. كانت ترتجف بحركة عصبية ومقلتاها تتحركان باضطراب تحت جفنيها، ثم أخذت أنفاسها تنتظم. راح يتأمل وجهها، منهكًا جميلاً. مرت دقيقتان أو ثلاث وهي نائمة شعر خلالها

بدفء بدنها الملتصق به. تثاءبت ثم فتحت عينيها. تطلعت إليه بصمت وامتنان. اعتصر كل منهما يد الآخر بقوة.

قال بنصف ابتسامة:

– لا بد أن نتحين لحظة ونخرج بعد أن أكلنا وشربنا كل ما لدينا!

قالت بوهن:

– كان عشاءً فاخرًا! لكن فكرة الخروج تصيبني بالرعب.

ضم كتفها:

– سنكون معًا. لا تخافي.

سرحتْ بأفكارها بعيدًا:

– بوسعي ألا أخاف، لكن كيف يسعني أن أرى أملاً؟ حين كنتُ طالبة في الجامعة انضممتُ إلى كل جماعة سياسية تأسست. شاركتُ في كل مظاهرة. ولم أجد في أي من ذلك لا طريقًا ولا شيئًا ولا شخصًا ملهمًا.

قال برجاء:

– البقاء هنا انتحار.

تنهدت:

– البعض ينتحر. أذكر أنهم احتفلوا من فترة صغيرة بالذكرى العشرين لانتحار مصور شهير من جنوب افريقيا!

تساءل:

– أي مصور؟

قالت:

– "كيفن"؟ "كيفن كارتر"؟ عام 1993 التقط صورة في قرية سودانية لطفلة في الرابعة من عمرها، كانت تزحف ببطء شديد على الأرض هزيلة جائعة إلى مركز لتوزيع الطعام واللبن. سمع "كارتر" أنينها وهي تزحف وغير بعيد عنها نسر كبير يترقب موتها. ظل يتابع المشهد عشرين دقيقة من دون أن يتدخل. أخيرًا طرد النسر والتقط الصورة. بعد عام فاز بأرفع جائزة في التصوير الصحفى عن الصورة.

قال:

– لكنك تقولين إنه انتحر؟

– بعد شهر واحد من نيله الجائزة ركب سيارته متجهًا إلى النهر بمدينة جوهانسبرج. أوصل عادم السيارة بداخلها. أنهى حياته تاركًا خطابًا في منزله كتب فيه "أنا مطارد بذكريات القتل والجثث والغضب والألم والأطفال الجائعين والجرحى".

تنهدت:

– أرواح المعذبين تطاردنا لصمتنا الطويل. أتفهمنى؟

لزم الصمت مدهوشًا. قال:

– لا يمكن أن يحكموا علينا بالعزلة والموت. سنخرج معًا. سأمشي بجوارك لا أفارقك خطوة بخطوة. إن فقدنا الأمل نكون قد فقدنا كل شيء. صدقيني.

هزتْ رأسها ببطء:

– لا أستطيع يا حاتم. حقيقة لا أستطيع.

– لن أدعك هنا وحدك.

– لن تحملني ساقاي. إن أردتَ أن تغادر فهذا هو الوقت الأنسب. قرب الفجر تهدأ الأصوات.

نهضتْ فجأة واقفة فارتطمت بجدار المصعد. نهض فورًا. طوق خصرها بذراعيه قبل أن تخر على ركبتيها. وضعتْ فردة صندلها في قدمها.

قالت:

– الآن هو الوقت الأنسب للانصراف. هيا.

شملته بنظرة طويلة كأنما تحفر وجهه في ذاكرتها.

قالت:

– قد تكون هذه آخر مرة أرى فيها وجهًا إنسانيًا. وأنت تقول إنني قد أنساك؟

اقترب منها فلم يعد يفصله عنها شيء تقريبًا. أحس بالحرارة التي تنبعث من بدنها. ضمها إلى صدره. اندفع يقبلها في عنقها وشفتيها وشعرها وعينيها. فتح باب المصعد الخارجي. قال لها ويده على مقبض الباب:

– لا يمكن لكل ذلك أن يستمر. سنخرج ونجد طريقًا.

جذبها من يدها يستحثها على التقدم. خرجتْ من المصعد إلى البسطة. هبطتْ ببصرها تتبين موقع قدميها في العتمة.

رفعتْ إليه عينيها برجاء:

– سنضيع في الضباب ولا أمل ولا طريق؟

– دعينا نحاول.

سحبتْ كفها من يده:

– لا تتعجلني إذن.

رفعتْ رأسها لأعلى وقامت بشهيق عميق. خطت خطوة صغيرة إلى الأمام، أعقبتها خطوة ثانية، ثم خطوة ثالثة. هبطا ببطء درجات المدخل. توقفا وراء الساتر الإسمنتي. هبت عليهما نسمة باردة من الشارع الغارق في الضباب. حدجتْ فيه

ودمعها يهتز على أهدابها. أمعن النظر إليها. كيف اجتمع لجمالها كل هذا الإنهاك وكل هذا النور؟

***

ليلة بلا قمر

أمام مربط الخيول علقوهم. عشرون رجلاً كتفًا إلى كتف. ظلال ترتجف على الأرض تحت سماء بلا قمر. دفقة أخيرة من دفء أبدانهم تطفو في الجو. بالقرب من المشنوقين تربع ثلاثة خفراء حول قش مشتعل سيوفهم بجوارهم. راحوا يغمسون لقم البتاو في صحن مش أزرق. يمضغونها بقوة وإصرار في صمت. شبعوا فارتدوا بظهورهم إلى الوراء. أطلق أكبرهم سنًا زفرة "ليس من السهل أن تعلق عشرين رجلاً مرة واحدة". أرجح النحيف رأسه يؤيده "لا. ليس سهلا". تثاءب ثالثهم القصير ذو الرأس الحليق فاغرًا فمه. وبخه العجوز "أغلق فمك. إنه طريق الشيطان إلى المؤمن". ثبت النحيف إلى العجوز نظرة متسائلة، فجرر العجوز صرة معقودة بالقرب من ساقه، وضعها بينهم. حل عقدتها ببطء فتلألأت على نور الشعلة خواتم بفصوص كريمة ومسامير من الذهب أطرافها مشتبكة بنسيل خيوط عمائم المشنوقين. سادت لحظة صمت. مسد العجوز ذقنه البيضاء وبسمل ثم رفع الجزء الأكبر من المجوهرات وأعاده إلى الصرة. عقدها قائلاً "هذا حق أتابك العسكر يأخذه في الصباح". بقيت على الأرض عدة خواتم ومسامير. زحزح إلى كل من الرجلين حصة وتناول نصيبه ودسه في كيس.

نهض القصير. التقط سيفه وشده إلى خصره. سار مبتعدًا ليقضى حاجته وراء نخلة. سرعان ما هرول راجعًا "يا جماعة. ثمت مشنوق ناقص". انتفض العجوز والنحيف. قال "مرتين أحصيتهم ببصري. تسعة عشر. ثمت مشنوق ناقص يا إخوان". ارتجف صوت العجوز "ما الذي تقوله؟ قام أتابك العسكر بتسليمنا عشرين رجلاً؟!". هتف القصير "ثمت واحد ناقص". قال النحيف "لابد أن الحبل لم يكن محكمًا على رقبة أحدهم، أو أن الأهالي تسللوا خلسة ونزعوا أحدهم".

اندفع الثلاثة إلى الأمام. توقفوا بغضب أمام المشنوقين. مر كل منهم بعينيه على الرجال يحصي عددهم. مرة. اثنتين. خمس. تهدلت كتفا النحيف "إذا جاء أتابك العسكر ووجد فردًا ناقصًا سيأمر بضربنا بالمقارع حتى الموت". تمتم القصير "فلنقرأ الشهادة على أرواحنا إذن". حدق العجوز بالفراغ المعتم ثم قال من بين أسنانه المهشمة "سنجثم في الظلمة. ننتظر إلى أن يرزقنا الله بعابر طريق، يفك كربنا". هرول القصير إلى الشعلة وأطفأها بضربات متتالية من قدمه، ولحق بالرجلين المحتجبين بالنخل.

انقضت نحو ساعة تحت السماء الغائمة، واشتد النسيم البارد، وأبصارهم مثبتة إلى الطريق من دون أن يتبادلوا كلمة، يفكرون في الموت الذي يتهددهم إن لم يظهر

شخص آخر. انقضى وقت وصدورهم تعلو وتهبط بأنفاسهم ولا أحد. فجأة تناهى إليهم من بعيد دق سنابك على الأرض. تبادلوا نظرات سريعة تلمع بالتوتر. أخفوا رؤوسهم وراء فروع النخيل وكتموا أنفاسهم تمامًا. من بعيد لاحت على الطريق مهرة. على سرجها فتى لا يتجاوز السادسة عشرة بتلفيحة حول عنقه. رفع القصير كفيه إلى السماء حمدًا وشكرًا. حين حاذتهم المهرة خرج الثلاثة وقد رفعوا سيوفهم في الهواء. أخذت المفاجأة الفتى فشد لجام المهرة وتوقف. على الفور لمح في أعين الرجال الثلاثة إصرارًا أسود. انقبض قلبه. ألقى السلام عليهم توخيًا للنجاة.

قبض العجوز على لجام المهرة "اهبط". تلعثم الفتى "أنا ذهبتُ بأمي إلى خالي لأنه على فراش الموت وعائد إلى داري". كرر القصير بحزم "قال لك اهبط فاهبط إذن". ولم يمهله وقتًا. أمسك به من ساقه وجذبه بعنف. انزلق الفتى من على السرج منكفئًا على وجهه. لملم نفسه من الأرض. نهض واقفًا. بدا مثل مهرج من الموالد قصير القامة. ساقاه مقوستان. رأسه ضخم وعيناه زائغتان. أخذ يشرح ثانية "أنا ذهبتُ بأمي وأعود الآن إلى داري". أمعن النظر في الوجوه الثلاثة فوجدها صلبة مغلقة. قال لنفسه "ثمت شيء غلط". تلفت حوله يفتش بعينيه عن أمل في النجاة فلم ير سوى عتمة تتدفق في الصمت بريح مترية. ارتد بصره إليهم "خذوا المهرة. والله ما أحتكم على شيء آخر. أنا فقط ذهبتُ بأمي".

جره القصير من رقبته إلى الأمام، وأخذ العجوز والنحيف يحثانه على السير بلكمات من الخلف. كاد أن يقع على وجهه. اعتدل وأدرك أن أمامه فرصة واحدة أن يتودد إليهم ويتقرب منهم. قال "أنا يا إخوان نقاش. من حارة الطبق. جئت من بلدنا إلى خالي ليعلمني الصنعة. لكن والله ما معي شيء يا جماعة" واصلوا دفعه نحو المشنقة وهو يواصل "حارة الطبق بيعت بيوتها في المجاعة بطبق من الخبز. كل دار برغيف. فسميت حارة الطبق. يعرفونني هناك. ووالله ما معي شيء يا إخوان". صده صمت حجري فتمتم "أنا فرج يا إخوان. اسألوا عني في الحارة. سيقول الجميع لكم إني طيب وفي حالي". دفعوه. رأى أنه يدنو من الموت فتشبث نعله بالأرض "أنا في حالي". زغده القصير في كتفه "امش وأنت ساكت". جرروه عدة خطوات فلاحت أمامه جثامين المشنوقين المدلاة. غرز عقبيه في الأرض. توالت اللكمات بعنف على وجهه ورقبته. التفت ذراعاه على ساق نخلة. فكه القصير من النخلة بضربة أسالت دمه على شفتيه. أعادوه إلى الطريق. نظر إلى المشانيق غير مدرك " ثمت غلطة". عكف على ركبتيه يزحر "لم أفعل شيئًا ياجماعة". هبط خدر ثقيل عليه. تدفقت إلى ذهنه دوامة منهكة من صور ساطعة غير مكتملة. استولت عليه رغبة وحشية في أن يصرخ بقوة. صاح "ثمت غلطة". زجره القصير "تقدم". بلغوا به سلمًا خشبيًا صغيرًا

من درجتين يصعد إلى المشنقة. رفعوا قدمه وهو يرفس في الهواء ويصرخ ووضعوها على السلم. الآن يشعر أنه يرى الموت والحياة معًا في لحظة واحدة.

رفعوه إلى أعلى. تأرجحت الأنشوطة أمامه في الهواء. تهدم وعيه مثل حجارة بيت تتساقط. قيد القصير يديه من الخلف بحبل غليظ قائلاً "لو أنك مؤمن حقًا لألهمك إيمانك أن تتخذ طريقًا آخر". شد وثاقه بقوة. تأكد أنه لا أمل، فلم يعد قادرًا على استحضار الكلمات لملاحقة ما يدور في ذهنه. "ذهبت بأمي. أشهد ألا إله إلا الله". أسقط العجوز الأنشوطة حول رقبته قائلاً "المؤمن يفرح بالموت لكنك مذعور". اندفعت إلى رأسه بضغط عنيف صور مفتتة مثل وعي يتمزق، ذكريات، كلمات، أصوات، روائح. برق في عينيه ومض ملتاث. غرز العجوز قدمه في خصر الفتى ودفعه في الهواء. ضرب الهواء أمامه بذراعيه وفي عينيه لمعة الجنون وهو يشهق طلبًا للهواء. تأرجح قليلاً ثم همد.

مكث الرجال الثلاثة صامتين يراقبون الفتى وهو يدور حول نفسه ببطء وأصابع قدميه مشدودة باستقامة إلى الأسفل. هبطوا وابتعدوا خطوات قليلة. توقف العجوز ومر ببصره على المشنوقين. قال "عشرون". لاحظ النحيف "لكن جثمان الفتى أقصر من الآخرين بكثير". عقب العجوز "أقصر أطول المهم أنهم عشرون".

ساروا ببطء نحو شعلة القش. تربعوا وألقوا سيوفهم بجوارهم. مسح العجوز وجهه بكفيه ورفع رأسه لأعلى "لك الحمد والشكر".

***

– نشرت في مجلة " الثقافة الجديدة" . القاهرة. نوفمبر 2013– عدد رقم 278

النور

القليلون يعرفون قصة ظهور المصباح الكهربائي، أقصد القصة الحقيقية وليس القصة الشائعة. الأصل يعود إلى قديم الزمان عندما كان القمر يلهم البشر بالنور الطريق إلى العشق، إلى الشعر، إلى البيوت في المساء. في بعض الليالي كان القمر يهبط إلى الأرض ويسبح في بحيرة أو أخرى فيلمع نوره على سطحها. وأعجب صياد بذلك الضى السحري، فتربص بالقمر وراء الأشجار ذات ليلة، وصاده من فوق سطح الماء بشبكة قوية. كان القمر ساخنًا جدًا من مشاعر العشاق وقصائد الشوق، وكان مشعًا، فتركه الصياد على الأرض حتى فترت حرارته، وفي الصباح أخذ يحطمه بمعول ضخم إلى قطع وشظايا صغيرة. وراحت المصانع تعبئ تلك الشظايا في علب ورقية وتبيعها للناس "النور. النور". هكذا ظهر المصباح في كل بيت. تفتت القمر إلى مليارات الملكيات الخاصة الصغيرة. أصبح في كل بيت نور، لكن لم تعد السماء تلهم البشر دروب العشق.

***

بالميرو

سافر إلى "محج قلعة" عاصمة داغستان ليحضر احتفالاً بذكرى أحد كبار شعراء القوقاز. كان يكره السفر لكن الصحيفة أجبرته تقريبًا. بعد سبع ساعات في الطائرة وجد نفسه في حجرة بفندق على بحر قزوين وقد تدلت من رقبته بطاقة "وفد أجنبي". كان برنامج الاحتفال مرهقًا لم يفلت صغيرة ولا كبيرة بدءاً من وضع الزهور على ضريح الشاعر مرورًا بالندوات إلى اللقاءات وغير ذلك، ثم انقلب مؤشر الإرهاق من تكريم الشاعر إلى تكريم الوفد الذي جاء لتكريم الشاعر.

يجلس يبحلق في المنصة التي توالى عليها الخطباء ورأسه يتساقط من التعب. ينعس. يفيق. تهتز بطاقة التعريف المدلاة على صدره كبطاقات المذنبين في ساحة العقاب. قال لنفسه والله لو أن الشاعر نفسه هو الذي يحتفل بذكراه ما تحمل كل هذا. لابد من العثور على كافيه إنترنت لإرسال المقال إلى الصحيفة. ندم على أنه لم يأخذ معه "لاب توب". حزم أمره ونهض رافعًا سبابته في الهواء كأنما يستأذن وخرج يبرطم.

الله على الشارع مشمس منير. سار يتلفت برقبته إلى أن شاهد لافتة على جدار بيت مكتوب عليها "كافيه بالميرو". إلى اليمين تحت اللافتة باب حديدي مشغول بالزهور، وقف بجواره شابان يثرثران. أخرج ما في جيبه من روبلات. تساوي ما قيمته عشرين دولار. المفروض أن تكفي فنجان قهوة ونصف ساعة إنترنت. اتجه إلى الشابين "هل لديكم إنترنت؟". أجابه القصير "سندبر ذلك". هز الآخر رأسه يودع صديقه وأولاهما ظهره مبتعدًا. أفسح الشاب الطريق أمامه. دخل إلى ممر مسقوف بتعريشة عنب تدلت أوراقها. غير بعيد تراصت ثلاث مناضد من البلاستيك الأبيض بمحاذاة سور قصير. كان المكان فارغًا إلا من رجلين يثرثران بألفة وهما يحتسيان الشاي. جلس إلى المنضدة القريبة من باب الكافيه.

اختفى الشاب وعاد بعد قليل يحمل "لاب توب". وضعه وانحنى يسأله بود "ماذا تود أن تشرب؟". أجابه "فنجان قهوة تركي" وحدث نفسه "أدب الجرسونات جسر إلى جيب الزبون". فتح ملفًا في "اللاب توب". بدأ يكتب " محج قلعة مدينة صغيرة بين الجبال الشاهقة على بحر قزوين . ناعسة مثل خاطر هاديء. رست السفن العربية على شواطئها في القرن السابع ميلادي. سادت فيها اللغة والثقافة العربية حتى مطلع القرن العشرين". طقطق بلسانه غير مستريح لمطلع المقال. تقدمت نحوه شابة طوقت خصرها بحزام ملون بالورد. وضعت أمامه فنجان قهوة وصحنًا من شرائح الشمام

وشطائر الجبن. ابتسمت تسأله "أي شيء آخر؟". شكرها. "لم أطلب سوى فنجان قهوة، فنجان واحد، لكنهم يضاعفون الحساب بأطباق إضافية. فتاة جميلة كهذه ولا تترفع عن المشاركة في عملية احتيال صغيرة".

جلس الشاب على حافة السور الملاصقة للمنضدة. سدد نظرة إلى شاشة "اللاب توب". قهقه "هل ترسل معلومات سرية؟". أجابه مبتسمًا "نعم. أفشي أسراركم". قال الشاب "أتمنى لو أنك كتبت أن لدينا أشهى لحم ضأن وألذ سمك في القوقاز". حدق بالشاشة "أليست هذه هي اللغة العربية؟". أجابه "نعم" وزر عينيه متسائلا "ومن أين له أن يعرف ذلك؟". استرسل الشاب "جدي كان يقرأ ويكتب بالعربية. كان يعدني كل صباح أن يعلمني إياها لكنه كان يسكر في المساء وينسى". "أكان يسكر كثيرا؟". أجاب "يوميًا. ذات مرة رأيته على غير العادة متجهمًا، فسألته ما بك اليوم يا جدي؟. أجابني اليوم أنا في كامل وعيي"! قهقه الشاب وسأل متوددًا "ما رأيك في قدح شاي بالنعناع؟". قال "جميل". وفكر "ضاعفوا الحساب والآن يخططون للحصول على بقشيش كبير". عاد إلى المقال "يعشق الداغستانيون السيوف المنقوشة والأزياء الموشاة بألوان كبرياء الجبال، والرصاص عندهم أعز من الخبز. لا يخلو بيت من بيوتهم من صور الإمام شامل على حصانه وتحتها عبارته الشهيرة "قدسوا الحرية يا أهل الجبال، كأنها أمهاتكم، ولا يغرنكم ذهب ولا ثروة".

عاد الشاب بفنجان شاي. ارتشف رشفة فوجد سكره قليلاً. "يسرقون الزبون ويستخسرون فيه ملعقة سكر". صاح في الشاب "سكر لو سمحت". "هل تكفي النقود التي بجيبي أم سيتحتم عليَّ تبديل دولارات إلى روبلات؟". أنهى المقال وأرسله إلى إيميل الصحيفة. نهض ولسبب ما وقف الرجلان الآخران وتقدما إليه. راح كل منهما يصافحه بحرارة ويهز يده في الهواء عدة مرات. استفسر من الشاب "كم الحساب؟". أجاب "لا شيء". قال "أشكرك. هذا كافيه ولابد من المحاسبة". أجابه "هذا بيت ليس كافيه". حلت عليه الدهشة "أي بيت؟ هناك لافتة ضخمة مكتوب عليها كوفي شوب بالميرو؟". قال الشاب "نعم، لكن مدخل الكوفي شوب على الناحية الأخرى من الشارع". تعجب "الله! والجرسونة الشابة؟". رفع الشاب رأسه ضاحكًا "أتقصد زينب؟ إنها زوجتي!". قال "والزبائن؟!". أجابه "أي زبائن؟ هما عمي وابن عمي في زيارة لنا". تمتم "لكن؟!". قال الشاب "أنت سألتني عن انترنت وأنا عندي. الشاي وغيره هو واجب الضيافة". استوثق مندهشًا مستريبًا "بذمتك أليس هذا كافيه بالميرو؟". قهقه الشاب يدق كفًا بكف "والله العظيم بالميرو من الناحية الأخرى"!

سأفتح الباب وأراكِ يومًا

-1-

سأفتح الباب وأراكِ يومًا. حتى لو لم تكوني أنتِ سأراكِ. حتى إذا لم تظهري أبدًا سأراكِ. سأراكِ مضطربة في فتحة الباب. تتطلعين إليَّ وأنت تتفادين الماضي. ينفطر قلبي على وجودك الهش كجناح فراشة تحت ذرات الضوء. سأراكِ لأني لم أفقد الأمل. عندما تهامسوا بأنكِ لن تعودي لم أفقد الأمل. عندما قالوا انقضت سنوات وانتهى كل شيء لم أفقد الأمل. كنت أتجه إلى الباب أفتحه وأنتظرك. أقف طويلاً، وصوت عميق في قرارة روحي ينبئني أنكِ قادمة، وأنني سأفتح الباب يومًا وأراكِ. نظراتك وأنفاسك وأصابع يديكِ من محبتي. عنقك وكتفاك من انتظاري. تقودك قدماك نحوي مغمضة العينين، كأن ما تمشين في النوم، فأفتح الباب وأراكِ. أضع يديك بين يدي. تفتحين عينيك، وتكون التجاعيد قد حفرت جبيني، وصبري على العشق قد حفر قلبي. ترفعين في وجهي عينيكِ الواسعتين المنهكتين من الرجاء. تتفادين أن تنزلقي بروحك إل ى هوة السنوات الطويلة التي عذبتنا. تندفعين إليَّ ملهوفة. يرقد وجهك يمامة في صدري. تسحبين رأسك من بين كتفي. تتنهدين فأستنشق عطرك الذي يدور منه قلبي. تملأين عينيك من طول تحملي ومن الغرام الذي في روحي. تقولين لنفسك إنه حين مزق البرق وجه السماء، حين كان الليل بمفرده سيد الكون، عندما لم يعد ثمت أمل، حين أغلق الجميع أبوابهم، وحده لم يفقد الأمل، وحده كان ينتظر ني، أكبر من اليأس، وأشد حنانًا من مرارة العتاب. شعركِ مبتل وكتفاكِ ترتجفان من طول الفراق. تضحكين ب ألوان الزهور. تهمسين لي "هل كبرنا؟". أقول لك إن ما جاء وردة يرحل وردة. تتطلعين إليَّ بعمق. ينفطر قلبي على الوجود الهش الذي منحنى كل تلك القوة لكي لا أفقد الأمل، لكي أفتح الباب وأتطلع طيلة العمر إلى الطريق وأُمني نفسي بأنني سأراكِ، عندما تكونين ندى على وردة، نورًا من نجمة بعيدة، أو دفء قلب مقدس. حتى عندما لا تكونين، سأظل أفتح الباب، أقف في الرعد والعتمة إلى أن تكوني، إلى أن تطوقي عنقي بذراعيك، فأهمس لك، إني لم أفقد الأمل، يتقد حبي، يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام. تغمغين في أذني بصوت خافت، لكنني لا أسمع ما تقولين من انفعالي الذي يزلزل كياني ، ترفعين صوتك قليلاً وبالكاد أسمعك تقولين "أنتَ". ولا يكتمل الكلام.

-2-

يطير قلبي إليكِ فى كل وقت . وأنا نائم يطير قلبي نحوكِ، وأنا أسير ، وأنا أصحو. يطير قلبي إليكِ. أراه بعيني يحلق في الهواء ويحترق في الطريق إليك. أراه ولا أستطيع أن أمد يدي لأطفئ اللهب. يطير قلبي إليك . لا يتوب. لا يتعلم أبدًا أنه سيحرق جناحيه وعظامه ويغدو رماد نجم أبيض. لا يتعلم ، لا يفهم ، يفلت من صدري إليكِ. أناشده أن يتمهل. أن يتعقل، لكنه يندفع كأنه ما وجد إلا من أجل أن يطير نحوكِ. المطر للسماء، والزهور للنجوم، وقلبي لمحبتك. أوبخه. يبتسم كالطفل ويرجوني "لأجل خاطري دعني أطير مرة أخرى، مرة أخيرة ". أزجره. أمسكُ به في قبضتي. يتطلع إليَّ من بين أصابعي ويسألني "أتعاقبني لأني عاشق؟". أطلقه. يتأملني بعينين تطلبان المغفرة ، يستدير مثل طفل أذنب ويطير إليكِ . أراه يحترق بشوقه. أسأل الله أن يخلصني من قلب يسكن المسافات التي تفصلني عنكِ . أقول له "يا رب لا تجعل حياتي شاهدًا على قلب يحترق. أجعله ثابتًا بين ضلوعي . دعه راسخًا في صدري" . ينظر إليَّ الرب قائلاً "هذا قلبك لأنه يحب، قلبك لأنه يعرف ما لا تعرفه أنت، فاطلب له السماح ولاتتكره" . أقول له "يا رب إنه يشتعل في اللهب ألف مرة". يبسم الرب برحمة متمتمًا "لم يبق إلا القليل . فاصبر وعش هذا الحريق، إنه مفتاح الفردوس" . أحني رأسي. أضم قبضتي متوسلاً "يا رب نجني من الفردوس واكتب لي الجحيم لأستريح". يصمت الرب متفكرًا متألمًا لأجلي ولا يقول شيئًا.

-3-

ذاب قلبي كله تحت عينيكِ فجرًا بعد فجر. ذابت عظامي وأنت تدورين حولي بكتفيك الصغيرتين تضحكين. تنظرين إليَّ بفضول وسرور الأطفال. ضاع وجودي كله. الآن تخلت القوة عن بدني. تخلت الشجاعة عن روحي. اضطرب عقلي ولم أعد أصلح لشيء سوى محبتك. لم يبقَ من عمري غير كلمات. لا أرضَ ولا سماء. لا نور ولا ظلمة. إلى من أكتب رسائلي هذه الآن؟ من الذي يكتبها؟ أيكون قلبي قد جن من كثرة ما أحبكِ دمي؟!

-4-

أنتِ مثل شجرة فتية واحدة في هذا العالم. جالس مستند إلى جذعكِ بظهري وذكرياتي وقلبي. أتطلع إلى أعلى حيث فاكهتك. حيث عيناك الجميلتان. أحدق بهما. باتساعهما الرحيم، لعلني إذا رأيتكِ أراني. جالس يغمرني زمانكِ. هذا الفجر منكِ. هذا المساء منكِ. يغمرني مكانكِ. هذه البيوت أنتِ. هذه الغابات أنتِ. وحين تمطر السماء على كتفي وعنقي أعرف أن هذا المطر أنتِ. كل الأزمنة وكل الأمكنة تتقطر من رأسك وشعرك المرسل ووجهك، تنزلق من كتفيك وتغرقني. هذه المجرات التي تدور في الفضاء أنتِ. الجبال والسفوح أنتِ. مستند بعمري إليك، ولست أدري من أكون. أحدق بعينيك العميقتين الشاردتين. أطوق عودك الأخضر بذراعي لعلني أعرف نفسي أو أتذكر من أكون. وحين تسألين "من أنتَ؟". أقول "أنتِ".

-5-

كل هذه السهوب المترامية قلبي. السماءُ الكبيرة التي تظللكِ في سيركِ. المساحات التي تمشين فيها قدر ما تشائين. الزهور المتمايلة بين الفجوات الصخرية قلبي. التلال والوديان المبتلة. الريح التي تهب عليكِ. الجبال الشاهقة والطير الذي يرتجف بينها قلبي. تمدين كفك إلى نور السماء وتسحبينها من قلبي. البطاح في الفجر قلبي، والحصى الصغير الذي تعبثين به وترمين بعضه إلى النهر، دوامات الماء المنداحة قلبي، الزهور الزرقاء التي لم توجد أبدًا، الأسماك التي تتواثب في برك المياه قلبي. هذا الجسر الخشبي الذي يهتز تحت قدميكِ قلبي، وسيصادفكِ بعد قليل حجر أبيض تجلسين عليه، تستريحين ريثما تسوين خصلة من شعرك. هذا الحجر الأبيض قلبي. الغزال الذي يفر بعيدًا بين الأشجار قلبي. الفجر الذي سيحل والليل الذي حل. الصخر الذي يندى بأنفاسكِ. مياه الشلالات قلبي. كوكب يحيا من حرارة اندلاعك ومن انطفائك الحلو مرتخية كأوراق الزهرة على راحة يدي. كوكب يعذبه الدوران في الكون بلا معنى من دون أنفاسك التي تحرق الروح. قلبي كوكب لوقع قدميك وأنتِ تثبين من ضفة لأخرى، ولا تتذكرينني ولو حتى بتنهيدة عابرة.

-6-

كل ما تقولينه يُسعد . كل ما تفعلينه يُفرح . كل ما تناميه يصبح حلمًا. كل ما تستيقظينه يصبح ربيعًا. كل ما تلتفين إليه يتجمد من جمالك! كل أرض تجلسين فيها تصبح حديقة . كل ما تندى عليه أنفاسك ي غدو وردًا . كل صخر تمرين عليه يتفتت نهرًا . وكل ما تفارقينه يصبح جرحًا!

-7-

حياتي خبزك تأكلين منها سنة بعد سنة حتى تشبعي وتنصرفى. دمي نهر تضربين فيه بذراعيك ثم تخرجين إلى الشط وروحي تقطر على شعرك. تبتعدين. لست مقسومة لي في هذا العالم. لست مقسومة لي في أي عالم آخر. فلماذا أرى دمي على كتفيك وأشعر طول الوقت أنك لي؟ أنك كنتِ لي؟ أنك ستكونين لي؟ أنك معي؟ أنك كنتِ معي؟ أنك ستكونين معي؟. تقولين عن دماي "سأغتسل منها". وتنصرفين. أتغتسل زهرة من لونها؟. لست مقسومة لي، فلماذا يكون وجهك آخر ما أغمض عليه عيني؟ وصوتك آخر ما يطرق سمعي؟ أم أنك مقسومة لي على هذا النحو المؤلم؟ وأنك بالفراق والعذاب تغمرينني بمحبتك؟

-8-

يمكنكِ أن تنزعي ذراعيك من حول عنقي. يمكنك ألا تلتقي بي. لكن المؤمن يظل مؤمنًا حتى بعدما ينزعون كتابه المقدس من بين يديه ، لأنه يؤمن با لإله وليس بالكتاب. هكذا أحببتك أنتِ، بالدماء التي جرت في كل عروق البشر، بأرواحهم كلها مجتمعة، بكل الجحيم الذي مروا به، بكل الجنات التي تطلعوا إليها. انزعي ذراعيك. لكنني سأظل أنصت لأنفاسك وهي تتردد في صدري، وأعلم أنني حين أغادر الدنيا سأواصل طريقي إليكِ. هناك، في مكان ما، تقفين وتتأرجحين بلون اللهب. تغمغمين "نعم. أنت من أحبني. لك وحدك كل ما هو لطيف فيَّ ، روحي وبدني ، نعومة خصري ورقة كلامي، إندلاعي وانديا ح عشقي في نظرتي، لك وحدك أضبط أنفاسي على إيقاع أنفاسك، نمشي صوتي كله لأذنيك، ضحكاتي كلها لقلبك، وأنت مسحور بحبي. ها نحن معا، فكيف داخلك الشك في الفردوس؟".

-9-

كل ما يفصلني عنكِ يغرقني. كل ما يصلني بكِ يغرقني. واقف أتطلع إليك. لا الزهور ولا الشموس الحارقة ولا الغبار ولا الصقيع يجعلني أحيد ببصري عنك. أتطلع إليك حتى لم أعد أرى. أراكِ حتى لم أعد بحاجة إلى أن أتطلع إليكِ. سنوات لا أبارح مكاني، ولم أعد أدري إن كنتِ هناك حيثما أرسل بصري أم أنك غادرت من زمن؟

-10-

واقف وحدي أتطلع إليكِ ولا أشفى منكِ، أتُشفى الروح من روحها؟ يقولون لي عليكَ أن تذعن للفراق كما يواجه الإنسان موته بشجاعة المرة الأخيرة للشجاعة. أخرج كل ليلة أفتح الباب. أقف وحدي. أنصت في الريح إلى أنفاسكِ. أنصت في النهر إلى دموعكِ، أنصت في السماء إلى نوركِ، أنصت في الفراق إلى لقياكِ، ولا صوت ولا صدى، ولا لحظة تصرحين بحبك. أعطني نهاية لكل ذلك، أو لحظة لقاء قبل النهاية.

***

وجه

ركبتُ "ميكروباص" متجهًا إلى عملي ممتلئًا بالآمال التي يثيرها نور الصباح في النفس. جلستُ على كنبة خلف السائق. أخرجتُ صحيفة وفردتها. تواثبت الحروف أمام بصري الضعيف مع حركة السيارة. أغلقت الصحيفة. أخذت أتأمل وجهًا لاح لي في المرآة الصغيرة على يسار السائق. راجعتُ بحماس خططي لهذا الشهر. سأنهى إصلاح أثاث حجرة النوم وأدهن الشقة. سأشتري أباجورة جديدة لأقرأ علي ضوئها في الليل. سأفرغ من الترجمة التي بدأتها وأسلم الكتاب. خلال أسبوع على الأكثر سأقوم برحلة إلى الاسكندرية. ألتقي بحنان. نتجول معًا في شارع صفية زغلول. أقسمُ لها مجددًا أنني لا أعشق سواها، أيا كان الصدود. لا شيء يقف عائقًا أمام الأماني والإرادة الصلبة.

تطلعتُ إلى المرآة التي على يسار السائق. لمحت الوجه مجددًا. زررتُ عيني أدقق فيه. وجه رجل عجوز منهك. تجاعيد عميقة حول عينيه. شيء مؤسف. كيف يصل الحال بالبشر إلى هذا العجز؟. حاولت أن أتبين وجه السائق لأرى إن كان ذلك وجهه هو فلم أتمكن. نظرتُ إلى وجه الراكب بجواري. كلا. لا يشبه الوجه الذي يهتز في المرآة. دفعت صدري إلى الأمام مقربًا عيني من المرآة. أمعنتُ النظر إلى الوجه وتعرفت إليه. إنه وجهي.

هبطتُ من "الميكروباص" ببطء وأنا أتسند على فتحة بابه. وقفتُ في الشارع. شعرتُ بالتعب يحط على ساقيي وقدمي. أخذتُ أجرر نفسي ببطء إلى الناحية الأخرى. هناك توقفت لألتقط أنفاسي.

***

آليونا

ظهرت "آليونا" للمرة الأولى عصر يوم شتوي. لم يكن ليظن أو يخمن أن ثمت آليونا صغيرة كهذه، قد تظهر، وتختفي، وتبقى للأبد في مكان ما حية غير مرئية. كانت نحو السادسة مساء حين دق جرس الباب. سمع الرنين وهو مرتكز بمرفقيه إلى سطح منضدة في الصالة يراقب من نافذة عن يمينه قطعة سماء تغيم بلون الحليب. شتاء روسي يشبه حقيقة صارمة تسوق الإنسان برصانة إلى الدفء والشرود والذكريات. يتابع ببصره ندف الثلج البيضاء تهمي بخفة وتتطاير في مسار الريح، تلمع في ضوء أعمدة الإنارة، كأنما يتهاوى النور ويتفتت أمام عينيه. أشجار البتولا عالية من وراء البيوت المقابلة، مكللة بالبياض والصمت مثل راهبات مستوحشات. فرك سيجارته في المطفأة. خلال أيام تسافر "صفية". ستكون بحاجة إلى مبلغ من المال للسفر وثمت هدايا ينبغي شراؤها للأهل. هبط بصره إلى إشعارات بنكية على سطح المنضدة. غدًا في الصباح الباكر يتجه إلى البنك ثم إلى مصلحة الجنسية لتجديد مستندات إقامته. في هذه اللحظة دق جرس الباب. أعقب الرنين وقع خطوات "صفية" في الردهة، وصوتها من هناك بعد قليل عاليًا ليصل إليه وهي تقول بدهشة "الجيران". نهض. اتجه إلى الفسحة الضيقة عند الباب حيث يخلع الضيوف معاطفهم الشتوية. كانت صفية واقفة ظهرها إليه. أمامها سيدة ممتلئة عريضة الكتفين وبجوارها وقفت آليونا. ألقى نظرة خاطفة عليها. قصيرة نحيفة تناهز الخامسة عشرة، ببنطلون قطيفة كاكاو وبلوزة بنية. شعرها أصفر ملموم في ذيل حصان، وجهها كعسل أبيض منقط بنمش خفيف. وقفت وعيناها تومضان بخجل وتوتر خفيف. تذكر أنه لمحها من قبل في مدخل العمارة وعند المصعد. قالت أمها وعلى ملامحها تعب حلو من تربية الأولاد: "جيرانكم". ابتسم مرحبًا. حاول أن يحزر سبب الزيارة المفاجئة. تقدمت الأم إلى الداخل وهي تدفع "آليونا" بقبضتها أمامها. جلستا في الصالة. هرولت صفية إلى المطبخ. جلبت أقداح الشاي وصينية عليها صحن من كنافة وبسبوسة. تبادلوا عبارات عامة عن الطقس والمدينة التي يسكن الناس فيها جنبًا إلي جنب ولا يلتقون إلا بالمصادفة. ظل يترقب الإفصاح عن سبب الزيارة حتى قالت الأم أخيرًا وهي تشير بحاجبها إلى ابنتها: "آليونا" قد تلتحق العام القادم بمعهد اللغات الشرقية. خطر لي يعني أنكم، صراحة، قد تستطيعون تعليمها اللغة العربية؟ ما لم يكن في ذلك إرهاق؟". جالت بعينيها بينه وبين صفية تستكشف رد الفعل. لم يكن قد استوعب المطلوب لكنه قال بنبرة مهذبة: "ما من إرهاق أبدًا". أمنّت "صفية" على كلامه: "هي مثل ابنتنا". ألقى نظرة على "آليونا". كانت جالسة وقد شدت

ظهرها وضمت ساقيها إلى ركبتيها تتطلع أمامها كمن يترقب صدور حكم. انزلق بصره من دون قصد إلى نهديها الصغيرين البازغين تحت قماش البلوزة المحبوكة. أحست نظرته فطوت كتفيها على صدرها. رفع بصره عنها، وقال لها على الفور: "لا تخافي آليونا. اللغة العربية ليست صعبة كما يقولون". صوبت بصرها إليه. رأى في عينيها قوة الصبا على السعادة. أجابت بنبرة بين الطفلة والأنثى: "كل شيء في أوله عسير، لكني لا أخاف". مدت أمها يدها إلى قطعة كنافة. قضمت جزءًا منها ونصحت آليونا: "حلويات شرقية. تذوقيها. تحفة". وازدردت القطعة كاملة فسال عسلها على جانبي فمها. بعد قليل نهضت الأم وآليونا في إثرها راضيتين باتفاق أن تتردد آليونا عليه مرتين في الأسبوع مساء كل سبت وثلاثاء. تمهلتا في الفسحة الصغيرة لارتداء المعاطف. ضمت "آليونا" جانبي معطفها الأزرق الطويل. ربتت على طرفيه تساويهما بكفيها ثم أطلت عليه برأسها من ياقة المعطف العالية مثل شمس صغيرة تخرج من زرقة سماء.

هكذا تجلت أمامه "آليونا" أمامه. ولم يكن ليحزر أن ثمة "آليونا" له، وآليونا لكل إنسان، تلوح وتختفي، وتبقى غير مرئية.

***

في اليوم السادس على زيارة آليونا ودع صفية في المطار. وقف يلوح لها بكفه عبر الحواجز الزجاجية وهي تجرر حقيبتها إلى صالة الركوب. هف عليه شعور بأنه حر. خرج من مبنى المطار إلى ساحة السيارات. كانت حوالي السابعة مساء. ريح وبرد وكتل من الثلج الأبيض في تلال صغيرة. ركب السيارة وشغل المدفأة. انطلق عائدًا إلى البيت. وضع في الكاسيت شريطًا لكارم محمود. انهمرت من أغنية "سمرا ياسمرا" الكمنجات ملتاعة على إيقاع الرق: "إنتِ الكأس وشفايفك خمرة..". يهزه اللحن من جذوره وهو يقطع الشوارع المكسوة بالثلوج. كل شيء أبيض. مداخل المحلات. محطات البنزين. قمم الأشجار. سقوف السيارات المركونة. معاطف العابرين المهرولين، كأن ملائكة خفقت بأجنحتها لتجلو وجه كون طاهر لا يعرف الكذب والطمع. كانت مَسّاحات السيارة تروح وتجيء تزيح خيوط الماء التي تسيل على الزجاج أمامه. غمره خشوع هادىء رصين لقوة مجهولة. أحس أنه وحيد، معزول، مؤقت، كالثلوج التي تتراكم ليلاً وتذوب بالنهار.

وصل إلى البيت. دفع باب العمارة الدوار. حيا المرأة العجوز حارسة البيت بهزة رأس. اتجه إلى المصعد. دخل الشقة. سمع الصمت في أرجاء المكان. لم يكن

قد خلع معطفه بعد حين دق جرس الباب. استدار وفتح. شاهد "آليونا" أمامه. مدت إليه يدها بصحن. قالت: "فطائر بالمربي. من ماما. روسية وستعجبكم". رفعت حاجبيها: "موعدنا غدًا.. أليس كذلك؟". صمتَ لحظة فحدجت فيه بتوجس: "ماذا؟ هل نسيت؟". ابتسم: "لا. لا. كيف أنسى". ابتسمت. أولته ظهرها وسارت إلى شقتهم في نهاية الممر. تابعها بعينيه "كيف يمكن لفتاة في هذه السن الصغيرة أن تتمتع بهذه الرشاقة؟". التفتت إليه من عند باب شقتها ولوحت له بكفها. تريثت ورجعت إليه: "نسيت أسألك.. المدام سافرت؟". قالت "مدام"، لم تقل العمة أو الخالة فأزاحت "صفية" عن أية مكانة خاصة وجعلتها موضع الند. انتبه إلى أنها تفعل الشيء ذاته حين تخاطبه. تتجنب استخدام أية كلمة تشير إلى توقيره. أجابها: "سافرتْ. ستبقى مع الأولاد وتعود زيارة في الصيف". لاحظ أنه هو أيضًا قد تفادى ذكر اسم صفية. سألها مترددًا: "أتحبين أن نبدأ الدرس الآن؟". بدت على وجهها فرحة قوية وسارعت بالانزلاق من تحت إبطه ويده الممسكة بمقبض الباب. هرولت إلى الداخل مثل أرنب يتحرر. جلست في الصالة. اتجه إلى المطبخ. أخرج من الثلاجة تفاحًا وشطيرة بيتزا بالسجق. عاد إليها فرآها تتابع فيلم كرتون باستغراق. لم تنتبه إلى مقدمه إلا مع انحنائه ليضع الصحن أمامها. التفتت إليه ضاحكة: "شقتنا زحمة. لا أتمكن من مشاهدة أي شيء بهدوء". أدارت وجهها بسرعة إلى شاشة التلفزيون تحدق مبهورة بالصور المتلاحقة. مضى إلى حجرة المكتب وهو يقول لنفسه "طفلة". أخذ يقلب أوراق شحنة الخشب الأخيرة. غدًا تخرج الشحنة من ميناء أوديسا وتصل الإسكندرية بعد غد. سيكون عصام في انتظارها. بعد قليل وافاه صوتها من بعيد: "خلاص أنا شفت الفيلم" بنبرة تستفسر لائمة "أين أنت؟". نهض متجهًا إلى الصالة. أحس بقدميه وهما تغوصان في مشاية الردهة. شعر بليونة تحت ثقل بدنه. تراءت له آليونا تتفتت مثل قطعة بسكوت هشة تتطاير بين صدره وذراعيه. تدفق الدم إلى عينيه ورأسه ساخنًا. "ما هذا الهراء؟. أنت تخرف، فاحترس". وجدها واقفة تتطلع في انتظاره إلى الباب المفتوح بين الصالة والردهة. قالت وعيناها تلمعان بأطياف سرور: "فيلم لذيذ قوي. نبدأ الدرس؟". لم تكن له خبرة بالتعليم أو خطة للدرس. لكن ألا يبدأ التعليم كله بالحروف؟. وضع دفترًا وقلمًا أمامه.

- ألف
- ألف
- باء
- باء

تاء، ثاء، جيم. نطقت كل الحروف المشتركة بين الروسية والعربية بسهولة إل ى أن حل الدور على الحاء، فظلت تجتهد مع ها حتى تركتها "مؤقتًا" على حد قولها. عندما وصلا إلى العين كرر عليها اللفظ مرة واثنتين، فحدقت به كأنها لا تصدق ما تسمعه، أو كأن اللفظ كارثة لا تحتمل. نهضت بحزم كأنما تتأهب لمعركة.
استجمعت قواها. فنجلت عينيها. دفقت اللفظ كأنه أوزة تتخبط هاربة من حلقها. لم يتمالك نفسه من القهقهة طويلاً. نظرت إليه بغيظ. جلست ساهمة تراجع خيبتها. انتبهت: "طيب. انطق **ыи** بالروسية. هيا. دعني أرى". تردد ثم نطقه بلفظ **I** الانجليزي. أخذت تميل بصدرها للأمام وترجع به وهي تقهقه سعيدة بأنها ثأرت لنفسها. احمر وجهها ودمعت عيناها من غمرة الضحك والسعادة. خبطت كفه بيدها كالأصدقاء: "واحد الكل يا بطل"! مسحت بيدها نداوة عرق على جبينها. أغمضت عينيها ريثما ينتظم تنفسها. تبادل الاثنان النظر في صمت، يستوعب كل منهما شيئًا ما استجد في الآخر أو في نفسه أو حولهما، شيئًا لم يكن في الحسبان. بدا لهما في تلك اللحظة أن كل ما يفصل بينهما قد زال فجأة، وتلاشى. فارق السن. اختلاف التاريخ. الوضع. اللغة. الذكريات، كأنهما يبدءان الحياة من جديد الآن، من نور لهما، يشملهما هما الاثنين فقط، ولا شيء خارجه، سوى ظلال بعيدة رمادية لأناس وأحداث من الصعب التعرف إليها. امتلأ قلبه بالفرح. تاقت روحه بضرواة إلى أن يضع يده على ذلك النور، أن يتيقن من أنه حقيقة. من تلافيف عتمة بداخله انتفض مخلوق غريب يهدم ما حوله بتوحش. حدق كل منهما بداخله واسترق النظر إلى داخل الآخر. توهج الجو من القلق والاضطراب. سعل وغطى فمه بيده. مدت يدها بأصابع مرتعشة إلى قدح عصير. الحواجز التي زالت فجأة خلقت حاجزًا آخر من حرج خفيف كذلك الذي يحسه شخصان يتعريان للمرة الأولى أمام بعضهما. نهضت وقالت بحزم: "لازم أمشي". مالت لتصافحه. هز رأسه في صمت. نهض ومد إليها كفه بأمل غير مفهوم. عند باب الشقة رفعت إليه رأسها بوجه لونه الانفعال من الخجل. اندفعت مهرولة إلى الخارج. مكث واقفًا مكانه. دار رأسه "ما هذا الذي يجري؟".

***

انتظرها يوم الثلاثاء. قبل الموعد بساعة اعتذرت بالتليفون عن عدم حضورها، واستدركت "لكني سآتي السبت القادم". أرهف السمع إلي ذبذبات صوتها يتلمس أثر فورة اللقاء السابق، فلم يجد، كانت تتكلم بحيادية تامة. خاطبها برصانة العلاقة بين

العم والفتاة الصغيرة. أنهى المكالمة. اتصل بصفية في القاهرة. طمأنته على الأولاد. قالت إنها بحاجة إلي عشرين ألف جنيه بشكل عاجل لاستكمال أثاث شاليه الإسكندرية. وعدها بتحويل المبلغ إلى حسابها. سلام. سلام. أحس أنه مشتت. مبعثر. كان مازال بكامل ملابس الخروج. وضع البالطو على كتفيه وهبط متجهًا بسيارته صوب محطة مترو "جوركي"، حيث يقع "ألف ليلة"، كافيه أقامه عراقيون جمعتهم صداقة الغربة. جاءوا في البداية طلبًا للعلم ثم التحقوا بأعمال مختلفة وتزوجوا روسيات وأنجبوا وألفوا الصقيع. كانوا يلتقون أسبوعيًا في مطعم معروف يشربون البيرة ويمزون بالجمبري، يلتمسون في الصحبة ذكريات الوطن ونخيله وخرير نهره البعيد. يتأسفون على ما جرى لبلدهم ويقرون في الوقت ذاته بأنه لا رجوع للعراق. إمعانًا في السخرية من فكرة العودة أطلقوا على لقائهم الأسبوعي "رابطة ملعون أبوك يا وطن". انهار الاتحاد السوفيتي وانفتحت أبواب البيزنس فأقاموا كافيه "ألف ليلة" برأس مال مشترك وأصبح مركزًا لرجال الأعمال العرب والشباب من الروس عشاق النرجيلة والكباب وغرائب الحضارات الأخرى. دخل الكافيه. طوقه إيقاع الطبول العميق وصليل الصاجات الرنانة في موشح "يا غزالي كيف عني أبعدوك". حيا بعض معارفه من العرب بإشارة من يده. جلس إلى منضدة شاغرة. طلب نرجيلة وسرح مع دخانها إلى مسئوليات رجوعه المرتقب إلى مصر. لم يكن قراره بالرجوع مرتبطًا بما يردده البعض عن الانتماء والعمل لرفعة الوطن، فقد كان يعتقد جازمًا بأن خلف الأهداف والشعارات البراقة ثمة مصالح وأهداف فردية في زعامة أو مال. كان حافزه إلي العودة أنه ببساطة غير قادر على الحياة خارج القاهرة وأنسها وأزقتها الملتوية ولهجتها ونكاتها ودفئها. فجأة رأى صديقه اللبناني سهيل يدخل الكافيه وذراعه مشبوكة بذراع شابة طويلة مشرقة الوجه. أقبل عليه وانحنى فاردًا ذراعه حتى نهايتها يقدمها إليه بصوت ممطوط وإجلال ملوكي "ناتاشا". اعتدل وضيق عينيه على بسمة ماكرة ينتزع الاعتراف بشطارته. كان سهيل مقربًا إليه لأنه مرح كريم يعطي الآخرين بامتنان، كأنهم هم الذين يمنحونه، قادر على رشوة أي مسئول بلباقة ولطف. فتح سهيل له الكثير من الأبواب التي ساعدته في تجارة الخشب خاصة في الفترة الأولى. جلس سهيل. طلب كبابًا له ولصديقته ونردًا وراح يعلمها اللعبة وهو ممسك بأصابعها يحرك بها الحجارة. قال: "اسمعوا هذه النكتة. سألوا امرأة فرنسية هل يسرها أن تتكلم مع زوجها أثناء العملية الجنسية؟ أجابت: بلى. يسرني أن أتكلم معه إذا وجدت تليفون بالقرب مني"! غمز سهيل بعينه اليمنى يخاطبه بالعربية: "البنت عندها صديقة مثل البدر. ما رأيك أطلب منها تكلمها ونطلع على البيت عندي؟". تأمل بشرة الفتاة العاجية وعينيها الزرقاوين اللامعتين بأوائل

النشوة. تخيل السهرة التي طالما قضى مثلها في بيت سهيل الريفي بضواحي موسكو. كان سهيل يعيش وحده، يبدل الصديقات بمعدل مرة في الشهر، يقيم الحفلات الصاخبة للأصدقاء وكبار الموظفين الروس. تجري بين أشجار الحديقة رائحة شواء اللحم. يتطاير فوح الفودكا اللاذع. تشتعل الأغنيات من إيقاعها الصاخب. تدور النكات اللطيفة والبذيئة. تلمع العيون من الرقص والضحك. أخيرًا يتفرقون كل إلي حجرة بصحبة شابة جميلة تنصهر في عنفوان العناق والقبل كأنما هي لحظة وجود لا قبله ولا بعده. تهدأ النار، وتتداح سخونة اللحم الحار من صدره وعنقه وأطرافه، تتسرب، ويحط عليه خمود ثقيل، بينما تنزوى روحه وحيدة في ركن بعيد. استعاد كل ذلك وتراءت له عينا آليونا أمامه مباشرة تنظران إليه بثبات وصراحة، ومن بين نهديها ينبعث نور يشق روحه حتى يكاد أن يسمع صوت تمزق الروح. اعتذر لسهيل "لا. الليلة لن أستطيع". انصرف.

***

استيقظ مبكرًا. تناول لقمة وهبط متجهًا إلى العمل. راجع مع السكرتيرة اللبنانية أخبار شحنة الخشب. اتصل بعصام في القاهرة. طمأنه عصام: "كل شيء تمام يا ريس". في طريق العودة إلى البيت عرج على محل أدوات مكتبية. اشترى طباشير وأقلامًا ودفاتر وسبورة مع حامل لرفعها. وضع كل ذلك على منضدة قرب التلفزيون في الصالة.

في المساء جاءت "آليونا". كانت ترتدي سروال جينز وبلوزة سماوية وجوربًا أبيض في حذاء رياضي. تطلعت إلى السبورة بدهشة وفرح: "معقول؟! كل هذا للدرس؟!". هز رأسه أن نعم ناظرًا إليها بتعقل. خاطبها بنبرة العم: "اليوم ننتقل من الحروف إلى بعض الكلمات". بيت. مدرسة. قلم. تلميذة. والآن إلى بعض العبارات. لقنها: "أنا اسمي آليونا. أنا فتاة روسية صغيرة". ضحكت: "لست صغيرة إلى هذا الحد". قال بتحفظ "أعيدي العبارة على سمعي". أعادت العبارة وحذفت منها كلمة صغيرة وأضافت من عندها كلمة جميلة بالعربية. قالت كأنما تفسر ذلك: "أعرف كلمة جميلة لأن لدينا رواية شهيرة لجنكيز أيتماتوف بهذا الاسم". أحس بأن مقاومته تنهار وهو يتطلع إليها. سألته عن الأهرامات والتماسيح والنيل وما إن كان بوسع الرجل الشرقي حقًا أن يتزوج بأربع نساء؟!". ضحك: "بلى. أقصد أن القانون يسمح له بذلك". فتحت عينيها مدهوشة: "ويستطيع أن يرضي أربع نساء مرة واحدة؟!". سكتَ. حدجتْ فيه تسأله مباشرة: "أنت مثلاً.. تستطيع؟". سكتَ متألمًا مضطربًا.

نظرتْ إليه بتحد أسقط السدود التي اصطنعها. من جديد زال كل ما يفصل بينهما. من جديد عاد النور يشملهما معًا. وحدهما، ولا شيء خارج النور. أحس برغبة عنيفة في ضمها واعتصارها بقوة ليغرز بداخله النور المنبعث.

واظبت "آليونا" على الدرس بعد ذلك خمس مرات. ألفتْ الشقة. صارتْ تدخل المطبخ تفتح الثلاجة بنفسها وتأكل ما تجده. تمشي فـي الصالة بشبشب وشعرها مفرود. ذات مرة تركت عنده رواية كانت تقرأها . قالت: "ربما تنشغل بشيء وأنا هنا فأجد ما أقرأه". جاءتْ في المساء. اعتذرت عن أنها لم تقم بالواجب المدرسي. قالت: "سهرتُ بالأمس حتى وقت متأخر فـي عيد ميلاد إحدى صديقاتي". جلس ليس أمامها كما اعتاد بل على فوتيه بجوارها، لا يفصل بين كتفه العالية وكتفها المنخفضة سوى ذراع الفوتيه. سألها: "أتشربين قهوة؟". أجابت: "مازال رأسي يدور من شمبانيا الأمس". عرض عليها : "لدّ يَ شمبانيا إذا أردت؟". صاحت: "حقا ؟! أين هي؟". نهضت. اتجها وذراعه على كتفها إلى المطبخ. انتقتْ كأسين من الصوان. أخرج الزجاجة. تذكر: "عندي بيتزا بالجبن والخضروات؟". رفضت: "لأ. أنا تعشيت منذ قليل". صبَ لها ولنفسه شمبانيا. أمسكتْ الكأس. نظرتْ إليه بتمعن وهو يدخن. أحس الاثنان بالتوتر. قالتْ: "أريد أن أجرب السجائر ". استدركت محذرة: "لكن لا تقل لماما؟!". وعدها أن يكون ذلك سرًا بينهما. أشعل لها سيجارة ورشقها بين شفتيها الرقيقتين اللتين تشبهان ورق الورد . سحبتْ أول نفس. احتقن وجهها . راحت تسعل. نصحها ألا تسحب الدخان إلى صدرها وأن تكتفي بتدويره في فمها ونفخه. جربتْ ما قاله واستراحت إليه. فردتْ ساقيها أمامها وأخذتْ تثرثر: "نصف البنات عندنا في المدرسة يدخن سرًا في دورات المياه أو خلف الأشجار في الفناء. بعضهن يرتدين أحذية بكعبٍ عال من دون علم أمهاتهن. أنا أيضا أتمنى أن أرتدي حذاء بكعب عال لكن ماما تمنعني. تقول لي مازال الوقت مبكرا". ضحكتْ: " هي لا تريد أن تشتري لي حذاءً بكعب لأنه أغلى". رفعتْ الكأس وتجرعتْ ما فيه حتى الثمالة. أردفت: "عدد كبير من البنات له علاقة بتلاميذ من أعمارنا، لكن بعضهن يفضلن الرجال كبار السن. يقلن إن كبار السن يمنحون الفتاة الصغيرة خبرة الحب فتستطيع فيما بعد أن تسعد حبيبها". تريثت قليلاً وبصوت ذائب: "هل هذا صحيح؟". تفكر لحظة. أجابها: "لا أدري. ربما يكون صحيحا". تقدمتْ بصدرها ناحيته وسألتْ بحيوية: "متى وقعت أنت في الحب لأول مرة؟". قال: "أول مرة كانت وأنا في التاسعة. عشقتُ فتاة تناهز العشرين. لم أتحدث معها، بل ولم أقف حتى بالقرب منها. لم تتجاوز علاقتي بها المرور تحت شرفتها كل مساء والتطلع إليها من عتمة الشارع وهي جالسة تحت ضوء مصباح لايظهر منها سوى نصفها العلوي بالطابق الأول. كنتُ أخترع الأسباب

لأمي لكي أغادر البيت وأراها. تحت تأثير غرامي بها كتبت: "شعرها أصفر ذهب.. وقلبي معها ذهب"! ابتسم وأضاف: " إلي أن حل يوم شاهدتها فيه واقفة عند البقال. وجدت أن شعرها ليس أصفر وأنها ليست كما بدت لي في هالة النور بالليل".

صبتْ لنفسها المزيد من الشمبانيا. قالتْ ضاحكة: "أنتم الشرقيين رومانسيون جدا". ابتسم: "كنت في التاسعة، ولم أكن قادرًا في كل الأحوال على شيء أبعد من الرومانسية". استفسرتْ بنبرة تأكيد: "لكنك كنتَ صغيرًا حين وقعتَ في الحب؟". حدثَ نفسه: "نعم. كنتُ صغيرًا". نظرتْ إليه بتحد: "كنتَ صغيرًا.. أليس كذلك؟". انزلق بصره إلى نهديها وأحس بروحه تندى بدمع مشتعل. لمحتْ الوجد الذي بان في عينيه. فردتْ أصبعها السبابة. مرت به على ذراعه تحك جلده ببطء. قالت بصوت يتداعى: "أنا أهوى الرجال ذوي الشعر الكثيف". دبت السخونة في رأسه. أحس كأن نارًا أُضرمت في بدنه. تحركت تفاحة آدم في رقبتها وهي تبتلع ريقها. " فيم قلقه وتردده؟. باب الشقة مغلق عليهما. بوسعه أن يتقدم ويدخل المعبد. النور على الأعمدة، إذا كان يريد فعلا أن يلمس النور. فيم القلق والتردد؟ للأسف الأمر ليس بهذه البساطة". اعتصر كتفها بقبضته. بدت على وجهها وخزة تألم لكنها لم تقل شيئا. ظلت تتطلع إليه بصراحة وبراءة. بزغ في أعماقه شعور لاهب. قال بحزم يداري انفعاله: "يكفي ما تعلمناه اليوم. يجب أن أستريح". حدقتْ به. وقفتْ: "بعد إذنك سأدخل الحمام دقيقة". اختفت في الداخل ثم عادت وفي عينيها دمع حبيس: "سأنصرف". دنتْ منه وهو جالس لتصافحه. جذبها إليه. طوقها بذراعيه وهي واقفة أمامه. التصقتْ بطنها بجبهته تقريبًا. سرتْ إلى جبينه ارتجافات بطنها النابضة بانفعال. دفعها إلى الخلف. أطلقها من بين ذراعيه. بدا على وجهها احتقان لوم واستياء مكظوم. لم يجد ما يقوله لها. تأملته. سلمت عليه من دون كلام. عند باب الشقة لاحظ أنها تمسك في يدها الرواية التي كانت قد تركتها ذات يوم. خلع ملابسه ورقد لينام.

في الصباح الباكر تذكر وهو يتناول إفطاره أخلاط حلم شاهده في منامه. كان كأنما يهبط وحده في عتمة على درجات سلم عريضة. وصل إلى بوابة العمارة الحديدية فلاحظ أنها ملساء تماما من ناحيته. فجأة سمع طرقًا على البوابة من جهة الشارع. انحنى ينظر من ثقب القفل. شاهد جسم شخص ضخم بيده بندقية طويلة. أحس بالخوف. أراد أن يستوثق من أن البوابة مغلقة بإحكام. سحب المفتاح من جيبه وأولجه في فتحة القفل. فوجيء بارتطام المفتاح بآخر وسمع صوت ارتطام المفتاحين داخل القفل، ثم خبط المجهول البوابة خبطة قوية بكتفه. ناشده بخوف: "دقيقة واحدة". لكن الآخر دفع البوابة بعزيمة أشد. جرى صاعدًا على السلالم إلى أعلى.

دبتْ من خلفه خطوات. تلفت في فضاء حوله ولم يجد مهربًا سوى أن يتنكر في هيئة تراب على الأرض لكي لا يتعرف المجهول إليه.

***

جاءت "آليونا" بصحبة أخيها الأصغر الذي جلس صامتًا يتفرج بالتلفزيون ويداه على ركبتيه. باشر الدرس من حيث توقفا من قبل. بدتْ شاردة وهو ي راجع الكلمات معها، تنظر من وقت لآخر إلي ساعة يدها، تجيب عن الأسئلة بفتور. بعد نصف ساعة نهضت. قالت لأخيها: "هيا بنا يا سيرجي". وجهت حديثها إليه: "اعذرني. ماما عندها حرارة لا بد أن أكون معها". جررت أخاها من يده فمشى يتعثر خلفها ورقبته معوجة نحو التلفزيون. بعد ذلك صارت "آليونا" إما أن تتأخر عن موعد الدرس أو تتصل معتذرة عن عدم الحضور، ثم تباعدت اللقاءات مع اقتراب مواعيد امتحانات المدارس، ثم أمست نادرة إلى أن توقفت. كان يعلم أن شيئًا ما قد اختنق أو انكسر ولم يكن يدري كيف يمكن إصلاحه. لم يكن واثقًا إن كان قد قام بما ينبغي عليه أم أنه أجهض بيديه كل شيء. عند عودته من العمل كان يتلكأ أحيانًا قبالة المصعد لعله يراها. اتصل بهاتف أسرتها عدة مرات لكن صوت أخيها أو أمها كان المجيب. في المرة الأخيرة التي اتصل بها، ردت هي بكلمة واحدة "آلو؟" وأنهت الاتصال كأنما لا تسمعه.

***

خلال نصف عام لم ير" آليونا" إلا مصادفة مرات قلائل. مرة عند مدخل محطة المترو المجاورة للبيت. شاهدها تخرج من المحطة على كتفها حقيبة رياضية بصحبة زميلتين من المدرسة . تطلعت إليه خطفًا بنظرة غريبة حادة وغضت بصرها. لمحها مرة أخرى في الردهة الممتدة بين الشقتين، ومرة في محل بقالة مع والدتها فلم يتقدم منها.

استغرقته إجراءات عودته لمصر من أوراق ومعاملات مالية وتصفية مقر شركة وسكن. خلال ذلك كان أحيانًا يستيقظ من نومه في الليل. يشعل نور الصالة. يجلس وحده. تمر أمام عينيه أخبار مصر على شريط شاشة التلفزيون، تنزلق من دون أن يستوعبها، وفجأة يستولي عليه ذلك الشعور بشعاع النور الباهر يشق روحه التي لم تلتئم. يسمع أغنيات مصرية قديمة. في قلبي غرام. الورد كله كسا الجنين. بلاش

تبوسني في عنيه. تهزه الألحان من أعماقه، ويسوقه موج الشجن إلى شاطئ بعيد. يخطر له "ثمت شيء غير صحيح في حياتي. شيء لا أدري ما هو. أين؟ لماذا؟ لكنه غير صحيح".

في نهاية السنة صفى أعماله. في يوم سفره إلى القاهرة انتظره تاكسي أمام مدخل العمارة ليقله إلى المطار. ظل واقفًا بجوار باب التاكسي فترة لعلها تهبط فيودعها. لكنها لم تظهر. في القاهرة أغرقته مشاغل العمل على مدى عشرة أعوام. زواج ابنته "نهى" ومن بعدها ابنه "طارق". فحوصات طبية إثر وعكة قلبية. وفاة أخته بالسرطان. فرحة قدوم أول حفيد. خلال تلك السنوات لم تكف آليونا عن مخايلته بعينيها وبالنمش الخفيف فوق عظمتي وجنتيها وبانفراجة شفتيها الرقيقتين. تلوح وتختفي مثل سكين تغوص لتشق الروح وتظهر لتغوص. عامًا بعد عام يعطش إلى اللحظة المترجرجة بين الطفولة والنضوج ولا يدري: إلى صباها أم إلي اكتمال نضجها يزداد عطشه؟ وما الذي كان عليه أن يفعله وقتها؟ مسايرة شعوره بها مهما كلفه الأمر؟ أم حسبان كل شيء بتعقل؟ هل كان جبانًا لم يتجرأ أم أنه غلَّب المسئولية على كل شيء؟ يتساءل ولا يصل إلي جواب.

***

اليوم هاتفه مسئول من وزارة التجارة المصرية يسأله إن كان مستعدًا للانضمام إلى وفد رجال أعمال يسافر إلى روسيا. مجددًا برزت أمامه الضحكة التواقة إلى الحب، البريئة من الشعور بأي إثم براءة صخرة تحت مطر. طوقه شعور بأن فجرًا أبيض رقيقًا ينتشر على مهل. لم يودعه أحد في مطار القاهرة يوم سفره سوى زوج ابنته الذي يسكن بالقرب من المطار. لم يكن بحاجة لمن يودعه. فقد كان بحاجة ماسة إلي الانفراد بنفسه.

فقد تهيأ للسفر شاعرًا بحاجته الماسة إلى الانفراد بنفسه. إلى لملمة سنواته بين كفيه، ليتأملها مثل حفنة زمن: ما هذا الذي كان؟

هبط بعد أربع ساعات إلى مطار شيريميتوفا بموسكو. كانت معه حقيبة واحدة خفيفة فلم يتعطل طويلاً. خرج من المطار. استقل سيارة أجرة إلى فندق أوكرانيا. في الطريق مد أنفه من نافذة السيارة يستنشق شذا الخريف وأشجاره في الوحشة الشاردة، مرسلاً بصره إلي الشوارع الفسيحة تقاوم الضباب بوهن. قباب الكنائس المذهبة. المطر الذي يهمي بحزن غامض. البنات سحر الوجود يهرولن على الأرصفة. بلغ الفندق. وضع حقيبته في الحجرة وهبط إلى المطعم. تناول العشاء. مجددًا السلاطة

الروسية و"البلميني" و"حساء البورش". أخرج زجاجة من جيبه وابتلع حبتين من دواء القلب. تجول في صالة الفندق الأرضية. بدل مائتي دولار بروبلات. توقف أمام محل صغير يبيع هدايا روسية. السَّماور. لوحات المنمنمات الدقيقة. صناديق خشبية معشقة برسم الكرملين بالصدف. أوشحة قطنية مشغولة. كان ثمة فتاتان واقفتان تقلبان حقائب وأساور نسائية. بعد قليل انصرفت واحدة منهما وبقيت الأخر ى. تفحص وشاحًا سماويا مشغولاً بزهور زرقاء. سأل البائعة عن سعره. التفت إليه الفتاة الواقفة بجواره. كانت ترتدي معطفًا بنيًا ينفتح جانباه عن فستان أصفر بحزام عند خصرها. انشغل مع البائعة حتى اشترى الوشاح. التفت إلى الفتاة. وجدها تمعن النظر إليه. شيء ما في وجهها بدا معروفًا له. استدار نحوها. رنت إليه ثم هتفت بنفاد صبر:

– معقول؟! أنت؟!

– أنا؟! هل تعرفينني؟

– أنت أليس كذلك؟!

اتسعت عيناها من الدهشة:

– أنسيتني؟

أضاءت صورتها عقله وقلبه مثل شمس أطلت على حقل بارد. صاح:

. يا إلهي؟!

. حدق بها غير مصدق:

. آليونا! نعم. آليونا!

خلعت القفاز من يدها اليمنى. مدت كفها إليه:

. من كان يصدق؟! العالم صغير حقًا! كم مضى من الوقت؟

. عشرة أعوام ربما أكثر.

تلمس بعينيه التغيرات التي طرأت عليها. أمامه آنسة كبيرة ممتلئة القوام بنظرة رصينة حلت محل الفتاة النزقة النحيفة التي عرفها ذات يوم.

قالت:

. فجأة أراك؟ الدنيا عجيبة فعلاً!

. ما أخبارك؟ وأخبار ماما؟ وأخواتك؟ كلكم بخير؟

. تمام. كل شيء تمام. ماما أصيبت بذبحة صدرية منذ عام لكنها تتعافى منها.

. وأنت؟ تزوجت؟ تعملين؟ عندك أطفال؟

ضحكت:

. كل هذه الأسئلة مرة واحدة؟ لا لم أتزوج. ونعم أعمل في مكتبة الجامعة . عمل غير مرهق لكن ممل.

. أمازلتم في شقتكم القديمة؟

ضحكت بسخرية لا تخلو من مرارة:

. نعم. مازلنا في السكن نفسه. أختى الكبرى تزوجت وانتقلت من عندنا. وأنت؟

. أنا؟ أنا ماذا؟

. جئت إلي موسكو للإقامة والعمل؟ أم مجرد زيارة عابرة؟

. زيارة عمل سريعة. نزلت في الفندق هنا.

ران صمت. استعاد كل منهما شريطاً من الذكريات يراه بطريقته.

ابتسمت تجامله:

. على فكرة شكلك لم يتغير كثيرًا. عرفتك من أول نظرة تقريبًا . عرفتك لكني لم أصدق عيني.

. أما أنت فزدت جمالاً.

تردد برهة:

. أنتِ الآن كبيرة، لم لا تصعدين معي إلى حجرتي لنحتفل بلقائنا بزجاجة شمبانيا؟

فكرت قليلاً:

. هنا في الفندق؟

. نعم. سنجلس ونتكلم براحتنا، ويطمئن كل منا على أحوال الآخر؟

. كيف حال مدام صفية؟

. بخير. لابأس. هل ستصعدين؟ أم أنني صرت عجوزًا تمامًا؟

ضحكت وهي تهز رأسها بالنفى:

. لا لا.. أنت تبدو كما كنت شابًا.

رجعت برأسها للخلف مقهقهة:

. تقريبا شابًا! سأصعد. لم لا؟

أضافت:

. لدينا ذكريات عزيزة. أليس كذلك؟

شملته رجفة:

. بالتأكيد. بالتأكيد.

ركبا المصعد. خرجا في الطابق السادس. سارا في ممر طويل وهي صامتة. فتح باب الحجرة وفرد ذراعه أمامها لتتقدمه. دخلت. ضغط على مفتاح الضوء. جالت

عيناها تتأملان المكان. جلست على أريكة في مواجهة سرير. فتح ثلاجة قصيرة. أخرج زجاجة شمبانيا وسلاطة وتفاحًا. أحضر كأسين وفتاحة. جلس بجوارها على الأريكة. فتح الزجاجة ففرقعت في الهواء وفاضت الشمبانيا كالزبد الأبيض على جانبي الزجاجة.

.في صحتك.

.بل في صحة اللقاء.

.أما زلت تذكرين أي شيء من اللغة العربية؟

وضعت الكأس على المنضدة:

.سلام عليكم!

ضحك من أعماق قلبه قائلاً:

. عليكم السلام!

أضاف:

.كنتِ دائمًا ومازلت نبيهة وحساسة.

ضغط كتفها نحوه وأضاف:

.كنت ومازلت جميلة.. جدًا.

ألقت رأسها على مسند الأريكة. أغمضت عينيها. طبع على عنقها قبلة خفيفة كالابتهال الرقيق. ما زالت تفوح برائحة التفاح الذي ينمو في هواء الغابات. لكن ثمة شيئًا ما تبدل بعمق فلم تعد رغبته فيها متأججة.

.لماذا لم تتزوجي إلى الآن؟

زمت شفتيها. بان في عينيها أسف:

. من الصعب العثور على شاب جاد بين شباب أيامنا. معظمهم يبحثون عن أوقات سعيدة عابرة.

سألها:

.أولم يطرق الحب قلبك؟

التفتت بكتفيها الاثنتين إليه. قالت بنبرة حادة:

.الحب؟ ما هو الحب؟ الإنسان لا يعرفه أبدًا. إنه يأتي مختلفًا كل مرة. مرة يكون حنانًا. مرة يكون رغبة. مرة كالنور. مرة مودة وتفاهمًا. مرة قويًا بعشرات الأجنحة. وأحيانًا يجثم على الأرض متطلعًا إلي السماء بعجز. ما من قانون للحب سوى أن يحدث. متى؟ كيف؟ لماذا؟ لا تدري.

لاحظ اختفاء وثبات الصبا الرنانة من صوتها. أهذه هي آليونا التي شقت روحه ذات يوم؟ انتبهت لصمته. قالت كأنما تهون عليه:

. هكذا هي الحياة.
أطلقت تنهيدة:
. على أية حال لقد احتفلنا. أليس كذلك؟
هز رأسه أن نعم.
نهضت واقفة. ضربت طرف فستانها تساويه بيدها. نظرت إليه باستفسار:
. سأنصرف إذن. تأخر الوقت؟
أمعن النظر إليها. لا يستطيع أن يصدق أن "آليونا" الصغيرة قد اختفت، وأنها ستظل تترقرق فقط داخل لحظة بعيدة، غادرها الاثنان، ولم يبق سوى صورة يراها ولا يصل إليها أبدًا.
قال:
. كأس أخرى؟
. يكفي. أنا سعيدة أننا التقينا.
. أوصلك؟
. لا. لا. أنت ضيف. أنا في بلدي.
أخرج المحمول من جيبه:
. نتبادل أرقام التلفونات؟
أرجحت رأسها يمينًا ويسارًا:
. لا داعي. الأرقام تتبدل. اتركها للمصادفة. هذا أجمل.
أعاد المحمول إلى جيبه. تناول الكيس الذي به الوشاح. قدمه إليها.
. هدية صغيرة. لعلك تتذكرينني.
. أنا أتذكرك من دون وشاح.
. عوضًا عن الهدايا التي لم أشترها لكِ حينذاك.
. أكنت حقًا تود أن تشتري لي هدايا؟
. من صميم روحي.
. لكنك لم تفعل.
رفعت حاجبيها لأعلى:
. أتعلم كم تكون الأشياء عزيزة في مقتبل العمر؟
شدّت على يده مبتسمة. قطعت عدة خطوات نحو باب الحجرة. وضعت يدها على مقبضه. فتحته ببطء. استدارت. لوحت بكفها مودعة. وقف يتابع سيرها في الممر. فقدت مشيتها شيئًا غاليًا كما تفقد القيثارة نغمة خاصة عرفت بها.

أغلق الباب. اتجه إلى الحمام. غسل وجهه بحفنة ماء. اتجه إلى النافذة العريضة لإسدال الستائر لعلها تمنع البرد. خلف الزجاج كان المطر ينهمر بقوة يلطم النافذة مستوحشًا في الريح. شحنه هدير المطر المكتوم بحنين جياش. نظر إلى السرير المغطى بملاءة وردية مزركشة. لماذا لم يحظ بها وكانت بين يديه؟ ألم يهزه الشوق إليها طويلاً؟ ما الذي صده عنها؟ أم أنها لم تكن "آليونا" التي تاق إليها والتي لا تشبه أحدًا، بل أخرى تشبه عشرات الفتيات. جلس. أرسل بصره إلى زجاجة الشمبانيا الممتلئة إلى منتصفها. قبض على عنقها. ملأ فمه من حلقها مباشرة. سرت حرارة الخمر في بدنه وتهدلت كتفاه. أحس بخواء وإحباط. لو أنه هصرها واعتصرها أكان يصبح سعيدًا؟ لا لم يكن ليغدو سعيدًا. شعر بالسخط والاستياء من نفسه. أين كان خطؤه؟ قضى معظم سنواته في شغل وكدح حتى أصبح لديه عمل ناجح وزوجة ومال وبنون. غرس شجرة وأقام بيتًا وربى ولدا. أليس هذا ما يتعين على كل إنسان أن يقوم به؟ أليس لأجل ذلك توهب لنا الحياة؟ فلماذا إذن لا يشعر بالرضاء العميق؟ قام. أخذ يذرع أرض الحجرة ذهابًا وإيابًا. يكاد الآن في صمت الحجرة أن يسمع حفيف احتكاك النهدين الصغيرين بقماش البلوزة يقرض قلبه بالندم والألم. لماذا لم يحظ بها منذ قليل؟ أمعن النظر إلى الشعور الأول الذي غمره منذ عشر سنوات ساعة الدرس. الشعور باتقاد روحه واشتعالها. أدرك فجأة أنه لم يكن يشتهي آليونا طوال تلك السنوات. إنما كان يتوق إلى روحه حين اتقدت وظلت تومض فوق بحر السنوات المعتمة دليلاً إلي مسار آخر وحياة أخرى، ومض شع منه الأمل أن تغدو حياته وهجًا لا ينقطع من الحماس والشعور. لكن بأي هدف؟ لمن؟ إلى أين؟

ابتلع جرعة شمبانيا. غدًا يعود إلى القاهرة في المساء. إلي الشغل. الجلسات العائلية. حسابات المصنع. الثرثرة مع الأصدقاء. إلي الرتابة التي لا تعرف الفرح العارم العميق. الآن لا يسع أي شيء أن يرد إليه السنوات التي انقضت، والتي توهب مرة واحدة، لا شيء، حتى لو ركع على ركبتيه وتوسل وتعلل بأنه لم يفهم في حينه.

وقف أمام النافذة. المطر يلطم الزجاج بقوة، وصورتها ترتج في خطوط الماء، وهي تضحك بقوة الصبا على الحب. تخبط يده بكفها، وتدمع عيناها من فرح نادر غريب.

***

خطوبة

في السابعة مساء الغد سيطرقون الباب. يفتح. يصافحونه واحدًا بعد الآخر باليد أو بإيماءة رأس. يتقدمون ببطء إلى الصالة. يسترقون النظر بأدب إلى ما حولهم. تجول أبصارهم بين المقاعد يرتبون في أذهانهم أماكن جلوسهم. يحشر العريس نفسه بين والدته وأخته على الأريكة ليخفي شحوبه وقلقه من سعادة حياته المقبلة. تفرد والدته كفيها على ركبتيها احتشامًا وتلزم الصمت. يمهد والده الطريق بحديث موزون عن أن الطيبين للطيبات وعن الفرصة السعيدة إلى أن يطلب منه يد ابنته أمل. هي عائلة كبيرة زوجت أولادًا من قبل. يعرفون كيف يسلكون في هذه المناسبات. ما الذي ينبغي أن يقال ومتى. أما هو فإنه – وكل ما لديه بنت واحدة– لم يمر بتلك التجربة. هل يهز لهم رأسه ببطء محتميًا بالوقار والرصانة؟ أم يطلق فرحته لتتواثب في عينيه ببساطة؟ أو يدع نفسه نهب الارتباك الذي يحسه وليكن ما يكون؟

تطلع إلي عيني زوجته في الصورة فوق التلفزيون. لو كانت حية لتدبرت كل شيء بيسر. سيخطبون ابنته. تتزوج. ويبقى هو بين صورتين. واحدة لابنته بفستان أبيض وأخرى لزوجته مكللة بلون الغياب.

مر بعينيه على الصالة. هي أساس كل شيء. هنا ستدور المعركة. لابد أولاً من استبعاد الأشياء المتناثرة الملقاة حيثما كان، ثم نفض التراب والكنس والمسح والتلميع. صاح على ابنته "أمل.. يا أمل". جاءت من الداخل. جر رّا إلى حجرة نومه كرتونة كتب كانت قابعة بين أرجل منضدة الطعام. قالت أمل تهون عليه "مؤقتًا يا بابا". أيد كلامها "مؤقتًا". عادا للصالة مثل جنديين وحيدين فقدا الاتصال بالعالم. رفعت كرسيًا لأعلى. هزته. "مشروخ. لو قعد عليه ضيف ح يقع على الأرض". شيئًا فشيئًا خلال نصف ساعة ارتفعت في منتصف حجرته كومة عالية من أدوات وأباجورات قديمة وعدة تليفون معطلة و"بنطلون" كان منشورًا على الحبل ومنبه مكسور وعصا قديمة. بعد نحو ساعتين فاحت رائحة الماء والصابون من أرضيات الصالة والحمام والمطبخ وبرقت الملاعق في الأدراج ولمعت الأقداح وانجلت المرآيا وسرى في الشقة هواء نظيف وومض من أركانها شعاع ينبض بالتوتر في انتظار أهل العريس.

ارتمت أمل تستريح على مقعد. تأمل جانب وجهها وارتجافة أصابعها الطويلة على ذراع المقعد. تكاد أن تكون قطعة من أمها عندما تعرف إليها في شبابه. العينان الواسعتان بنظرة استسلام ناعم للأقدار. "هل يجب تحضير عشاء أم نكتفى بشربات؟". سألها. رفعت حاجبيها بحيرة. لم يتخيل قط أن سؤالاً كهذا قد يمسى بهذه

الأهمية! نهضتُ من مكانها "أقول لك يا بابا.. إيه رأيك نسأل عمو حسام؟". قال حسام "اكتف بهاى تي". رد عليه محبطًا "يطلع إيه بقى اللي أنت قلته ده؟". جاءته الإجابة بعنجهية "انزل أي محل حلويات واسأل. هم يعرفون".

هبط معها إلى الشارع بالقميص والبنطلون اللذين كان ينام فيهما. تسوقا كل ما يلزم وعادا إلى البيت. اختفت أمل في حجرتها. سمعها تتكلم مع صديقاتها. حط عليه وخم وكبس عليه النوم في جلسته على الأريكة. رأى في المنام أنه في مكان غريب، معتم، شبه مغلق. أمامه على الأرض حقيبة يذكر أنها لأمه. سحب منها محفظة مكتظة بأوراق مالية. سأل نفسه كيف أخرجُ بالحقيبة من هنا؟. استيقظ . دخل الحمام. خرج إلى الشرفة ووقف يفكر "سيطرقون الباب ويدخلون. هل أظهر لهم عزة نفس لأني أمنحهم ابنتي هدية؟ أم امتنانًا لأني أتلقى ابنهم هدية؟ أم ماذا أفعل؟ أف!".

عصر اليوم التالي استحم قبل موعد العريس بساعة. دعك جسمه بالليفة بقوة، كأنه يعاقب نفسه على ارتباكه. حلق ذقنه مرتين. عطر وجهه بكولونيا من زجاجة مركونة من زمن. ارتدى بذلة كاملة ورباط عنق. بدت أمل في الفستان الوردي المسدل مثل زهرة حلم شفاف. أخذا يتنقلان من حجرة إلى أخرى من دون هدف. يتقاطعان في الممرات. تدخل هي إلى المطبخ فيخرج منه إلى الصالة. أخيرًا دق الجرس.

تأمل كل منهما الآخر بوجه مشتعل. أيتقدم ليفتح لهم الباب؟ أم يتركها هي تفتحه؟ أليس الأليق أن يجلس باحترامه وينهض لمصافحتهم بعدما يدخلون ويمدون أياديهم؟ لكن إذا ترك أمل تفتح أليس في ذلك تجاهلاً لكبريائها؟. يا رب الرحمة! ألقى نظرة خاطفة على الصورة فوق التلفزيون. شجعته بنظرة دافئة "لا تقلق. تقدم. كل شيء سيكون على ما يرام". فتح الباب. ظهرت شابة جميلة على يديها "تورتة" كبيرة. أخت الخطيب. والده. والدته. أخيرًا أطل حضرته بعينين زائغتين. هو أيضًا مضطرب؟

أهلا وسهلا. دخلوا. غيمة تحايا متبادلة فوق الرؤوس. نورتونا. المكان منور بأصحابه. وضعت الشابة "التورتة" على المنضدة. جلس العريس بين أمه وأخته على الأريكة. قعدت أمل على كرسي وحدها تسترق النظر إلى الشاب الذي كان يتفادى النظر إليها بالحملقة مرة إلى السقف ومرة إلى السجادة. قعد هو بجوار والد الخطيب. قطعي "التورتة" يا أمل. حاضر يا بابا. حضرتك من إمتى على المعاش؟. يا مرحب. وسيادتك كنت في مصلحة الضرائب؟ معقول؟!. أنا كان لي ابن عم الله يرحمه بقى كان بيشتغل هناك. خطوة عزيزة. لكن أصل العائلة – الأصل

أقصد – من الزقازيق. بلد الأفاضل. فرصة سعيدة. أخيرًا فتح أبو الولد الموضوع بصوت خافت "يشرفنا نطلب يد ابنتك أمل". ارتج من العبارة. كان يتوقع سماعها بالطبع. لكن الكلام حين يقال يختلف بعض الشيء، ربما بسبب صوت الرجل الخجول. لزم الصمت. اختلس نظرة إلى أمل. كانت تحدق به مضطربة مثل روح تتأرجح بين الانطفاء والاندلاع.

صور بيضاء من الطفولة والأبوة والحب رفرفت قبل أن يطمرها الزمن القادم. الطفلة التي ضمها إلى كتفه متألمًا لأجلها عند أول حقنة تطعيم. البنت التي فعلت كل ما أرادته بالمحايلة أو قهر أنفه. الشابة التي تسارق نظرات مكثفة إلى حبيبها، تجلس الآن بتوتر تهز ساقًا على ساق من انسلاخها عن حياته إلى حياتها.

همس الرجل: "يد أمل".

فرح رقيق داخل حزن. حزن رقيق داخل فرح. كيف يمكن للسعادة أن تكون مؤلمة هكذا؟

***

الصبي الذي يأكل الماء

اتجهتُ إلي العمل صباحًا وأنا أشعر بالجوع. لم تكن لديَّ رغبة في السير بحثًا عن مطعم. قصدتُ أول عربة فول صادفتني عند ناصية الشارع. كان "المعلم" واقفًا بجلباب تتدلى من وسطه فوطة متسخة وهو يحشو أنصاف أرغفة مفتوحة أمامه بالفول. طلبتُ منه رغيف فول. حرك قدرة الفول بكبشة ذات يد طويلة. اغترف شوية ووضعها في طبق صاج صب فيه خلطة من البهارات والليمون. دعك الفول بشوكة وناولني رغيفًا. أعطيته جنيهين. في منتصف الشارع ظهر صبي في نحو التاسعة يمشى في ظل العمارات ويده على رأسه من سخونة الشمس. كان مرتديًا فانلة رخيصة ملونة و"بنطلونا" قصيرًا وفي قدميه شبشب بلاستيك. أقبل علينا. دفع إلى المعلم بجنيه ونصف جنيه. غمغم: "نص فول ونص ميه". مال بعنقه على ناحية وهو يحك شعر رأسه بأظافره منتظرًا السندويتش. لم أسمع من قبل عبارة "نص ميه" فلم أفهم المقصود بها. مد المعلم يده للصبي بورقة من صحيفة عليها الرغيف. أخذها الصبي وسار مبتعدًا بها. استند بظهره إلى صندوق قمامة وأخذ يلتهم الرغيف. حرصتُ ألا يعلو صوتي وأنا أسأل المعلم: "ماذا يعني بنص فول ونص ميه؟". التفت الرجل بلحم وجهه الغليظ نحوي: "بجنيه تأخذ نصف رغيف فول. بنصف جنيه تأخذ نصف رغيف ماء". تساءلت مدهوشًا: "ماء؟". قال "الماء الذي يُدمس فيه الفول". وقفت اللقمة في حلقي. قلت لنفسي "لقد كتبت قصصًا عن الحب والقلق والغربة والزمن. إليك قصة عن صبي يأكل الماء. هل تستطيع أن تكتبها؟". لازمتني عدة أيام صورة صبي بعينين واسعتين سوداوين يأكل الماء. أرى الصبي أمامي لكني لا أعرف حكايته، ولا أصله ولا فصله. صبي ينمو على الماء مثلما تنمو الزهور. صبي قد يموت من الجوع تحت أحد كباري المدينة أو قرب جراج سيارات. صبي قد يصبح مقاتل شوارع ينتزع قوت يومه بالمطواة ويحسبون له ألف حساب، صبى تنتهى حياته بين جدران أحد السجون. صبي قد يصبح بمعجزة عالمًا عظيمًا. خطر لي أن أجمع معلومات عن الأطفال الذين يشبهونه. ووجدت في الصحف مايلي:

من تقرير للجهاز المركزي للاحصاء . 1 يناير 2010

"جاء في التقرير أن هناك مليوني طفل فقير في الشوارع بلا تعليم ولا طعام يكدحون في مختلف الأعمال الشاقة، يعيشون في المقابر والعشش والجراجات والسلالم والمساجد".

في القصة لابد من اسم للصبي، ولابد من مكان يعيش فيه. لنقل إن اسم الصبي الذي يأكل الماء شاكر، وإنه يعيش في منطقة بشتيل بالجيزة. تُوفيت أمه مبكرًا كما

يحدث أحيانًا، وتزوج والده من امرأة ضاقت بالصبي فألحت على والده أن يعهد به إلي أخيه صاحب ورشة الكاوتش. قالت له: "منها الولد يخف الحمل عنا ومنها يتعلم صنعة". فجأة وجد شاكر نفسه غريبًا في بيت آخر. يوقظونه فجر كل يوم فيمضى خلف عمه إلى الورشة يفرك عينيه جائعًا إلي النوم والطعام. يبقى هناك حتى المساء. يرفع الكاوتش ويفك العجل. يأتي بأطباق الكشري لعمه ساعة الغداء. تعلم حتى الكشف على العجلة إن كانت مثقوبة أم لا. أحيانًا تهدأ الحركة ولا يظهر زبون. يسرح ببصره إلي العيال التي تلعب في الشارع. يتذكر أمه. يثب ويتجه إلي العيال يلعب معهم. منذ أيام نادى عليه عمه ولم يسمعه من بعيد، فاتجه إليه وجذبه من الشارع وهو يلطمه على وجهه. هدده منذرًا: "إنت جاي للشغل مش للعب. إنت خلاص بقيت راجل. حلل لقمتك وإلا أرميك في الشارع. أنا عندي عيالي كفاية".

ليلة بعد ليلة ينام شاكر على حصيرة تحت بطانية في الصالة. يحلم طول الليل بالهروب. لكن إلى من؟ إلى أين؟ ولا يخطر له سوى خاله حسين القهوجي في شبرا. قبل أن تموت أمه بزمن اصطحبته في زيارة له. "الخال والد" كما كانت تقول أمه.

. محيط . 5 ديسمبر 2007

. " في تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية هذا العام أن نصف ثروات مصر تحت سيطرة 1٪ من الأغنياء ، أما نسبة الفقراء فبلغت ما يقرب من 55٪ من السكان".

الليلة قرر شاكر أن يهرب أيا كانت النتيجة. ظل يتقلب طوال الليل تحت الغطاء خوفًا من عالم كبير جديد ومجهول. ربما لا يعثر على خاله؟. أيًا كان لابد من الهرب. مدً بصره في غبشة الليل إلي باب الحجرة الوحيدة الموارب حيث ينام عمه وزوجته. القدمان الأطول البارزتان من تحت اللحاف عمه محمود، الأقصر زوجته وابنته. يتنصت على أنفاسهم. مستغرقون في النوم. يدفع شاكر البطانية. ينهض بحذر. يتجه إلي دورة المياه. يخرج ورقة مخبأة ملفوفة على جنيهين ونصف جنيه. يرتدى الفانلة والبنطلون القصير. يضع في قدميه الشبشب البلاستيك. يسير إلى الباب على أطراف أصابعه. يفتحه ببطء. ينبح كلب في الخارج نباحًا غريبًا ثم يسكت. يغلق الباب برفق. يستدير بوجهه إلي الزقاق. الجو بارد. يرى اثنين بالجلابيب يتجهان إلي الجامع لأداء صلاة الفجر. يخطو مرتجفًا إلي الأمام وقدماه تغوصان في برك الوحل. يلتفت خلفه. لا أحد يتعقبه. لم يستيقظوا إذن. جرى بكل قوته إلي حارة جانبية تفضي إلي الشارع الرئيسي. تسارعت دقات قلبه وما إن رأى الشارع حتى توقف لحظة مدهوشًا وبكي.

. جريدة الاتحاد . 14 مارس 2012

"ثلاثمائة مرشح لمنصب الرئيس بعد عزل حسني مبارك من بينهم لص يدعى محمد رشاد قال في لقاء ببرنامج "مصر الجديدة" إنه تاب، لأن الجريمة لا تفيد. وأكد انه أجدر المرشحين بمنصب رئيس بلد عظيم وغني مثل مصر".

مدّ شاكر خطاه في اتجاه ميدان الجيزة. كان الهواء باردًا. فكر "حان الوقت ليستيقظ عمي ويتجه إلي الورشة. سيبحثون عني ولن يجدوني. وسيندم عمي ويقول لزوجته "إحنا ظلمنا الولد ده". وأكون أنا قد عثرت على خالي. أعيش معه. وذات يوم أشترك في نادي شباب ألعب الكرة. أخرج من النادي بطقم رياضي وحذاء كاوتش أبيض على كتفي حقيبة رياضية بحمالة. أمشي وألتقي بالمصادفة بأحد عيال بشتيل. ينظر إليَّ ويقول مندهشًا "ياه.. أنت تغيرت قوي يا شاكر"! أودعه وأتجه إلي بيت خالي أنام طويلاً ولا يوقظني في الفجر أحد". أحكم شاكر قبضته على الجنيهين ونصف الجنيه وهو يدنو من الميدان.

. جريدة الشروق .10 مارس 2014

" نشرت مجلة "فوربس" الاقتصادية في 4 مارس أن مجموع ثروات رجال الأعمال المصريين زاد بعد ثورة يناير 2011 أربعة مليارات، وبلغ 22.3 مليار دولار".

كان قد مشى طويلاً في البرد فأحس بقرصة الجوع الشديدة. توقف أمام كشك سجائر. سأل البائع "أروح شبرا إزاي ياعم؟". أجابه الرجل: "اطلع قدام شوية. سترى أتوبيسات كثيرة واقفة. اسأل هناك". مضى إلى حيث أشار الرجل. وكانت الشمس قد طلعت فغطى رأسه بيده من حرارتها. رأى عربة فول فاتجه إليها. أعطى المعلم جنيها ونصف جنيه. قال له "نص رغيف فول ونص رغيف ميه". ناوله المعلم الرغيف في ورقة. ولمح شاكر رجلاً واقفًا يأكل على مهل. تبادل مع الرجل نظرة سريعة. ثم مضى بالرغيف بعيدًا قليلاً. استند إلى صندوق قمامة وأخذ يلتهم السندويتش. فرغ من الأكل. مسح فمه بالورقة وألقاها إلي الأرض. اتجه إلى موقف الأتوبيسات. ركب وأعطى المحصل جنيهاً. رجاه "والنبي ياعم لما تيجي شبرا قل لي". أجابه "لما الناس كلهم ينزلوا تبقى دي شبرا". وقف الولد الذي يأكل الماء بجوار امرأة بدينة وهو يتطوح مع حركة الأتوبيس. تذكر أمه. لماذا ماتت مبكرًا؟. لم تكن الحياة سهلة مع والديه لكنه كان يشعر أنهما يحبانه. ابنهم أيًا كان. يتوقف الأتوبيس. يهبط الركاب. ينزل الولد إلى الشارع. يتلفت حوله. شبرا كبيرة جدًا. أين خاله هنا؟

. صحيفة القدس العربي . 10 ديسمبر 2014

"أشارت صحيفة الجارديان إلى أن ثروة عائلة حسنى مبارك التي تم تهريبها للخارج تقدر بنحو سبعين مليار دولار".

توقف الولد عند المقاهي، واحدة بعد الأخرى، يسأل: "خالي حسين بيشتغل هنا؟". يرد عليه أحدهم "لأ". يواصل سيره للأمام في شارع الترام. يرى عشرات الشوارع الجانبية عن يمينه ويساره. يقول لنفسه "لابد أن أنتهي من هذا الشارع أولاً". بعد ساعتين شعر الولد بأن رأسه يدور، وأن المرائي تغيم أحيانًا في عينيه من الجوع. جلس على الرصيف. شاهد أمامه على الرصيف المقابل مخبزًا تفوح منه رائحة الدقيق. أحس أنه جائع بدرجة لم يعهدها. نظر إلى الأرغفة الساخنة المرصوصة فوق الجريد. تلوثْ معدته. تلفت حوله. مشى ببطء إلي الناحية الأخرى، وعندما اقترب من الخبز اندفع بسرعة واختطف رغيفًا وجرى به بما تبقى من قوة في ساقيه. لحق به واحد من عمال المخبز. أمسكه من قفاه، لطمه على وجهه، وقاده صاحب المخبز إلى قسم الشرطة وحرر له محضرًا.

. صحف مصرية . 12 ديسمبر 2014

"طفل مصري في مركز الفشن بمحافظة بني سويف شعر بالجوع وسرق خمسة أرغفة من مخبز، فحبسه القاضي لمده عام".

وقع بين يدي ذلك الخبر أعلاه، ورأيت بجوار الخبر صورة الصبي. تأملت الصورة المنشورة. بدا لي أنني أعرف الصبي بعينيه السوداوين الواسعتين. لكني لم أتبين ملامحه بدقة. ربما يكون هو، ربما يكون آخر يشبهه، لكن رغبتي في كتابة القصة خمدت تمامًا، إلا أنني فيما بعد صرت كلما رأيت صبياً أفتش عن الزهرة الجائعة.

***

مرآة

في الثانية عشرة ليلاً هدأت أصواتهم. إما لأن الوقت تأخر أو لأنهم تعبوا. احتشدوا في الصالة واقفين قبالتي وأنا جالس على الكرسي. كنت كأنما أراهم في مرآة غائمة تبرق فيها أحيانًا نقاط مصقولة. تعجبت من مناظرهم. طوال وقصار، بملابس وأزياء مختلفة، من أعمار متعددة، على وجوههم تعبيرات متنوعة. جمع بينهم شيء واحد أنهم كانوا ينظرون إليَّ معًا برصانة وصمت. لا أذكر من فيهم الذي تقدم نحوى أولاً، فصافحني مودعًا من دون كلام وأولاني ظهره. لعله الوعى، أو الأمل، أو الحلم، أو الشجاعة. ثم تقدمتْ نحوي ذكرياتي في معطف قديم. أمسكتْ كفي وهزتهما في الهواء كأنما تعتذر لأنها لن توافيني إذا استدعيتها فيما بعد. أومأتْ برأسها تسلم على الآخرين وغادرتْ وهي تكتم سعالها في قبضتها. تشجع الآخرون فاقتربوا مني واحدًا بعد الآخر يشدون على يدي وينصرفون. شعرتُ بانقباض من الرحيل المتوالي الذى قطع الأمسية بلا تفسير. أحسستُ بالمكان خاويًا موحشًا. وأخذت الأوراق والكتب تسبح وتتطاير في الجو بنعومة ثم تزول في نقطة لا أراها. تواثبتْ الملعقة ذات اليد الطويلة التي اعتدتُ أن أقلب بها السكر وتلاشت. واختفت في أعقابها السراويل الشتوية الدافئة. هرولتْ منصرفة من دون أن تتطلع نحوي الأقداح التي عشقتُ خصرها المضموم، لحقت بها المصابيح الجانبية الصغيرة، فوجدتني جالسًا وحدي على كرسي في الصالة لا شيء ولا أحد سواى. كأني في خلاء فسيح مهجور. ستجد أحلامي قلبًا آخر، وتحيا ذكرياتي من بعدي بصورة أو بأخرى، ليس بحضور مكتمل، لكن نتفًا منها ستظل حية في عقول وأرواح أخرى. استغربت أن يستمر وجودي في الحياة من غير وجودي. حدقتُ بالفراغ والسكون حتى كل ّ بصري. ثمة صور شخصية تلمع لحظة وتنطفيء. أصبح الصمت كثيفًا، وبقيت في عقلي مرآة تومض في العتمة. لم يبق سوى هذه المرآة. على سطحها توهجت مهتزة نقاط صغيرة مثل مشاعل في الريح. حقل ممتد. دراجة على سطح بيت. صوت والدي. عفاف التي أحبها منذ الصغر. عين جدتي الطيبة الحولاء. باب المدرسة الضخم. أمي ممسكة بكفي نقطع شارعًا طويلاً خاليًا من المارة. فجأة سطع في عيني وهج أبيض، وانقطع شيء ما لحظة لم أشعر خلالها بنفسي. وحين رجعت إلي نفسي لم أر صورًا، أية صور. تملكني فزع غريب. إذا فارقتني هذه الصور الأخيرة فلن أرى نفسي ثانية. لن أتذكر حتى هذا الحفل الصغير ولا ملامح الضيوف الذين كانوا هنا منذ قليل. حاولت جزعًا أن أستجمع ما تبقى من جهد لأقف وأغلق باب الشقة بالمفتاح. خيل إليَّ أن كل شيء متوقف على ذلك. لكني لم أستطع أن

أتحرك. تساءلت "ما الذي يحدث؟" وعلى الفور تساءلت ثانية "ما الذي كنت أسألُ عنه الآن؟"، فلم أتذكر. شاهدتُ في المرآة، المرآة ذاتها، تتهشم مثل سائل يتمدد ويتهتك، وكما يشعر الأعمى بالضوء على جلده شعرت بالظلام الذي يعم لكني لم أره.

***

بيت جدي

للطفل الصغير ذاكرة كبيرة وقد لا يبقى منك للأجيال القادمة سوى ما وعته ذاكرته عنك، فلا تستهن بطفل يلهو حولك. أعطه كلما رأيته حلوى وشيكولاته واجلس أمامه متوددًا بأدب وحذر. لسوء حظ جدي أنه لم يفعل معي شيئًا من هذا، بينما كنت قادرًا على تذكر كل شيء وأنا في السادسة. لم يخطر على باله أن أحد أحفاده قد يصفه بعد ستين عامًا. لو طرأ له ذلك الاحتمال لربما حرص على ارتداء بيجاما مكوية طوال الوقت والمشي برصانة وأناقة ومخاطبتنا بحساب. لكن ذلك لم يرد على باله فترك صورته في ذاكرتي من دون تجميل أو تزويق. رجل كسول. يستسهل طلب كل شيء من جدتي الحولاء إلى درجة أننا كنا نردد ضاحكين أنه ذات مرة ناولها كوبًا قائلاً "خذي يا نفيسه أعطني هذا الكوب"! يمشي متكأً على عصا لعرج خفيف بساقه اليسرى ضاعف من إظهاره استعلاؤه . منشة الذباب لا تفارق يده حتى وهو يقلب الكتب التسعة التي تألفت منها كل مكتبته، سبعة منها لعباس العقاد. في العصاري يفترش أرض الصالة ويطري الليمون بدعكه في فروة رأس من يقع منا تحت يديه.

ذات يوم كنت ألعب أمام الترعة. تنشّقَ أحد الأولاد رائحة الليمون الفاقعة المنبعثة من رأسي. سألني مندهشًا "أنت واكل ليمون؟". قلت "لاء طبعًا". استغرب قليلاً. قرب أنفه من فمي قائلا "طيب تجشأ". تجشأت في وجهه. رفع رأسه مستغربًا "عجيبة. الريحة مش طالعة من فمك". تشممني من كل ناحية حتى وصل إلى شعر رأسي، فصحت على الفور "أصل فروة رأسي بها بثور صغيرة لابد من دعكها بالليمون". وعلى الفور شن الأولاد حملة تنشق على أخواتي وقرروا بعدها أننا عائلة جرباء. المهذبون منهم كانوا يقولون "أمراض جلدية". لكن سمعتنا "العطرة" لم تمنعنا من مواصلة دورنا الرئيسي في الحياة وهو النمو في الشارع العرة المسمى "السروجي". حتى اسم الشارع لم يكن ليوحي بتاريخ عريق أو عائلة ذات شأن. من قبل كنا نسكن في شارع "الجيش". اسم له "شنة ورنة" المعارك والحرية والاستقلال! أما "السروجي"؟ فمن يكون؟ "صرماتي" نزح من الريف وسكن الشارع بالمصادفة. عشنا ثلاث سنوات كاملة في شارع "الصرماتي" المجهول حتى خروج والدي من الحبس. اعتقلوه في يونيو 1953 في محل الأمريكيين الشهير بشارع سليمان باشا. كان جالسًا يحتسى فنجان قهوة حين فوجيء بضباط البوليس السياسي يتقدمون إليه ويفتشون حقيبته. ضبطوا معه منشورًا بعنوان "عد إلى بلادك يا فوستر دالاس"، وآخر من ثلاث ورقات "الاستعمار في مصر".

أغلقت أمي الشقة التي كنا نسكنها بالعباسية وجررتنا في الليل وحشرتنا مع عدة حقائب في سيارة اتجهت بنا إلى بيت جدي. بعد فترة توقفت السيارة وهبطنا. نزلنا ولدًا صغيرًا وثلاث بنات في شارع معتم بمنطقة مهجورة أمام بيت قصير من طابقين، انبعثت منه رائحة كريهة لأن الصرف الصحي لم يكن قد دخل الجيزة، فاعتمد السكان على عربات تأتي من وقت لآخر لنزح المجارير. بجوار مدخل البيت ارتفعت مضخة مياه، وعن يساره جرت ترعة ضيقة ترامت من خلفها غيطان في الظلام. وقفنا تحت سحابة متحركة من ناموس قارص، لا نسمع حولنا سوى نقيق ضفادع أشبه بنواح كئيب. تطلعت إلى البيت وظلاله على ضوء القمر. الطابق العلوي بارز كأنه حنك مفتوح يتأهب لابتلاعنا، والسفلي منكمش كأنه يراقب الطريق ريثما يبتلعنا العلوي. بدا لي البيت وحشًا خرافيًا. جذبتني أمي من يدي لأدخل. قلت خائفًا محتجًا "إيه يا ماما الزفت ده؟!". زجرتني هامسة "هس. إوعى تقول كده. ده جدك هو اللي بناه"! دفعت أخواتي البنات إلى المدخل وراحت تجرر الحقائب واحدة بعد أخرى وتركنها في مدخل البيت. كان المدخل عبارة عن بسطة مستطيلة ضيقة ترتفع في نهايتها عشر درجات. تصعد وتنحرف يسارًا فتجد نفسك أمام باب شقة جدي. لصق الشقة حجرة مفردة أقام فيها خالي محمود فترة. أمام الحجرة دورة مياه ضيقة جدًا تخفي أسفلها المجرور. الطابق الثاني كان شقة يؤجرها جدي بجوارها سطح به عش للحمام وصفايح زبل لتسميد تكعيبة العنب وإطارات دراجة قديمة.

وقف جدي وجدتي وخالي محمود في استقبالنا. سلموا علينا. ودخلنا. شاهدت صالة تصب في حجرة تنتهي بشرفة تطل على الترعة تدلت من سقفها "لامبة" صغيرة. وقفتُ فيها ورأيت تكعيبة العنب التي تسلقت جدار البيت وقد تدلت منها قطوف عنب أخضر مثل الياقوت.

كان جدي معلمًا في مدرسة ابتدائية ثم رفتوه لأنه نكدي وكل يوم بخناقة. هكذا همست لي جدتي ذات مرة. لم تكن له أدنى علاقة لا بالهندسة ولا بالمعمار ولايحزنون، لكنه كان أستاذًا في "المريسة". وضع بنفسه تصميمًا للبيت، وأشرف على بنائه شخصيًا، فأصبح البيت هزأة المعمار منذ بناء الأهرام حتى برج القاهرة. ولو اكتفيت بذكر أن جدي كان معلمًا بمدرسة ابتدائية لظلمته، فقد كان إحقاقًا للحق مثقفًا موسوعيًا بكل معنى الكلمة. لم يكن يفهم ليس فقط في المعمار بل ولم يكن يفهم قضايا أخرى لا تحصى، ومن موسوعية عدم الفهم استمد شعوره القوي بالكبرياء والترفع. من أسرة تركية لا يخلو من وسامة. أنهى التعليم الابتدائي فحاز لقب "أفندي" في الوثائق الرسمية، وكان كل من ينهى التعليم الابتدائي يحصل عليه. تقدم للزواج من جدتي وكانت من عائلة كبيرة عندها عزبة في الزقازيق حوالي مئة فدان.

وافقوا عليه لأنها سمراء سلتاء حولاء مسالمة وطيبة ويصعب العثور على عريس لها. كانت تمشي بالقرب منا في ثوب أسود رقيق فلا ندري إن كانت قد عبرت بجوارنا أم خُيل إلينا؟. لم أسمع لها صوتًا طوال سنوات طفولتي. كلامها أقرب إلى التنهد. لم تكفها الجرأة أبدًا للنظر إلى من تخاطبه. مرات عديدة أردت أن أمسك وجهها بين يدي وأن أرفعه عاليًا، أغمره بقبلاتي إلى أن تنظر إليَّ فأرى محبتها العميقة التي أشعر بها نحوي. تزوجها جدي فآلت إليه عشرون فدانًا هي نصيبها من أرض والدها، فقرر جدي أن يتجه إلى الريف لمباشرة أرضها. في البداية كان يقول "أرضها" وسرعان ما تحولت الكلمة على لسانه إلى "أرضنا"، ثم انزلقت إلى "الأرض" بدون تحديد جهة الملكية، وأخيرًا استقر على كلمة "أرضي"!

هكذا قرر جدي أن يشرف على زراعة "أرضه" بنفسه. اشترى كتاب "البراعة في فن الزراعة" تأليف خليل أفندي الحلواني (موسوعي آخر)، وبشجاعة كريستوفر كولومبوس مضافًا إليها جهل جدي شد رحاله متجهًا إلى الزقازيق. في الأسبوع الأول من وجوده هناك التهم كمية لابأس بها من القشدة والزبد والبيض الفلاحي، في الأسبوع الثاني صب اهتمامه على الوز والحمام المحشي. خلال ذلك لم يفارقه كتاب "البراعة" لخليل أفندي. في مارس أمر الفلاحين بزراعة القمح مستندًا إلى ما جاء في الصفحة 14 من كتاب الحلواني. تربع الفلاحون تحت قدميه في المضيفة ومصمصوا شفاههم. قالوا له "يا مراد أفندي نحن فلاحون نزرع الأرض من مئة سنة. القمح يزرع في نوفمبر بس". فنجّل عينيه الواسعتين محتقنتين بغضب المعارف والعلوم وصاح فيهم "هذا قمحكم أنتم. قمحي أنا يُزرع في مارس". تبادل الفلاحون النظر فيما بينهم بمعنى أنه رجل لا علاقة له بالزراعة ولا عمره شافها. وتركوه ليهنأ بقمح مارس.

مرة بعد أن تعشى وشبع من الفطير المشلتت خطر له أن يمر على الحقول على ظهر حصان، إما لأن كبار الملاك يقومون بذلك، أو أنه تذكر مشهدًا كهذا من فيلم لحسين صدقي. خرج من البيت وجدتي عند الباب تودعه وداع الأبطال. ركب الحصان ومن خلفه فلاح ببندقية على كتفه يدعى جودة. سار متمايلاً تحت ضوء القمر (يا سلام على جمالك يا جدي) وتوغل في الحقول.. تعرفه الخيل والليل والغيطان.. والرمح والقرطاس والقلم. بعد قليل فوجئ بفلاحات قابعات في الأرض سترن وجوههن بطرح وبجوار كل واحدة زكيبة صغيرة تجمع فيها المحصول! زعق "بتعملي إيه يا مرة أنت وهي؟!". لم تعبأ به ولا بزعيقه امرأة واحدة كأنه وتابعه جودة مجرد ضباب في السماء. هبط من على الحصان وترك لجامه لجودة. هتف فيهن بصوت مجلجل "بتعملوا إيه؟". لكن النسوة واصلن جمع المحصول بهدوء واثقات من

أنه يستحيل على رجل أن يلمس امرأة ولو بطرف أصبعه. وقف صامتًا يفكر إلى أن هداه عقله إلى حل. راح بهدوء يخلع ملابسه قطعة وراء أخرى إلى أن أمسى عاريًا كما ولدته أمه. وأخذ يهرول بين أكتاف النساء القابعات مظهرًا لهن نفسه!

لطم جودة على وجهه وهو الذي لم ير منظرًا كهذا في تاريخ الزراعة صائحًا "يا دي النيلة يا أولاد! بتعمل إيه يا مراد أفندي؟!". انتبهت النسوة إلى الرجل العريان تحت ضوء القمر. بُهتن. تركن الزكائب بما فيها وفررن في كل اتجاه يصرخن "الراجل اتجنن". عندما ابتعدن بمسافة كافية شرع يرتدي ملابسه متمتمًا "أوباش. لصوص. أرسلوا نسوانهم عشان ما حدش ح يقدر ييجي ناحيتهم". في طريق العودة مشى جودة خلف الحصان مشية السائر في جنازة يكرر بنبرة باكية "يا دي النيلة يا أولاد! دى عمرها ما حصلت!" نهره جدي "انكتم. مش عاوز أسمع صوتك خالص".

خرّب جدي الأرض والعزبة. لم تمض سنتان حتى باع الفدادين وهو يلعن الفلاحين الأوباش أعداء العلم والمعرفة. رجع إلى القاهرة بجدتي التي سطع نجاحه في عينيها فزاد عليها الحول. كان معه مبلغ من بيع الأرض شاد به البيت مستندًا إلى كتاب "الأسرار في فن المعمار" تأليف الجهبذ النحرير مصطفى دردير. وكافأته الطبيعة على إنجازه المعماري بإطلاق جحافل ناموس جعلت الحياة داخل البيت لسعًا متبادلاً على الأقفية والخدود ليل نهار.

كانت أمي همزة الوصل بين حياتنا من قبل في شارع الجيش المنير وبيت جدي. لكن أمي سرعان ما اختفت ولم نعد نراها إلا قليلاً بعد أن قررت استكمال تعليمها، وكانت قد توقفت عن دراستها بجامعة فؤاد عندما تزوجت والدي متخيلة على ما يبدو أنها اقترنت بنجم صحافي يتلألأ أبعد ما يكون عن أرض السجون. لكنهم فاجأوها باعتقال النجم فثابت إلى رشدها وقررت استكمال دراستها لكي تجد عملاً فتؤمن لنا بمردوده مستلزمات الحياة. دبرتْ شهادة طبية بمرض نفسي فأعادوا قيدها في الكلية بعد انقطاع دام سبع سنوات. صارت تتجه من بيت جدي بالجيزة إلى الجامعة كل يوم سيرًا على قدميها. ترجع تغسل ملابسنا. تكوي. تنظف. تساعد جدتي في الطبخ. في المساء تراجع معنا دروسنا. ننام فتعكف هي على محاضرات الكلية حتى الفجر. تجرعتْ مرارة أنها مرغمة أن تعيش مع أطفالها عبئًا على معاش جدي الهزيل، وهو الذي قاطعها ثلاثة أعوام بعد أن تقدم والدي لطلب يدها فسأله جدي بعنجهية "وحضرتك أين تعمل؟". أجابه والدي بسذاجة "شاعر وكاتب"، فقال له على الفور "مادمت لا تعمل في الحكومة تبقى لامؤاخذة عواطلي. شُف لك شوفة أخرى". اتخذتْ قرارًا جريئًا بأن تهرب مع والدي وتعقد قرانها في بيت خالتها بحلوان. خاصمها جدي وحرم ذكر اسمها أمامه إلى أن ذاب غضبه من زخات الدموع التي

أطلقتها جدتي. أنهتْ الكلية واشتغلتْ معلمة في مدرسة بمدينة طوخ. كانت تبيت هناك في منزل المعلمات طول الأسبوع. تأتي إلى القاهرة يوم الخميس وتسافر الجمعة. شابة حُرمت من زوجها، أمٌ حُرمت من أطفالها. لم أسمعها تشكو مرة واحدة. كنا نأكل في الإفطار والعشاء أنصاف أرغفة، وإذا تسللت أصابع أحدنا الصغيرة لأكثر من نصيبه لسعه جدي عليها بكفه الثقيلة. كان يراقب الجميع بعينين مفتوحتين وهم يأكلون ليضمن أن الخبز سيكفى الأفواه النهمة كلها وأن عدالة الفقر ستتخذ مجراها. يحدث هذا أمام عينيها. تكز على ضروسها ولا تنطق. علمنا صبرها وصمتها أن ننهض جوعى مبتسمين كأنما شبعنا. مشينا حفاة في شارع السروجي فلم يطرف لها جفن. لم تظهر ضعفًا أمامنا أبدًا. فقط كان الصداع النصفي يهاجمها بضراوة. ترقد على جنبها في حجرة نصف معتمة. تربط رأسها بمنديل تعقد طرفيه بمفتاح باب الحجرة. تطلب مني أن أجلس على السرير بالقرب منها وأضغط رأسها بجماع يدي الاثنتين. كانت روحها من القوة بحيث لم تجد الطبيعة فيها منفذًا للبكاء فراحت تلطم بدنها بصداع عنيف عوضًا عن دمع لا ينهمر.

كل يوم خميس أرجع من المدرسة وأصعد إلى السطح. أشب بقدمي وأرتكز بمرفقي على السور. يمتد أمامي نخيل الغيطان وراء الترعة. أحدق يسارًا بنهاية الطريق أترقب ظهورها. يطن رأسي من الترقب والوقوف طويلاً في هواء ملون بوهج الشمس. أخيرًا تلوح أمي من بعيد. نقطة صغيرة تنمو نحوي. من بعيد ترفع رأسها ناظرة إلى السطح لأنها تعلم أني أنتظرها، أنتظرها ولا أفقد الأمل. تقترب وحقيبة يدها ترتطم بساقها. عندما لا يفصلها عن البيت سوى أمتار قليلة أهبط مسرعًا زاعقًا "ماما جاءت". ترانا فتمر ببصرها علينا بلهفة كأنما تطمئن على كل ضلع فينا وكل ذراع وكل عين. تلمنا بعشق بين ذراعيها المفرودتين. تغوص رؤوسنا في بطنها وبين ذراعيها. تلمع عيناها بومض يتقلب بين شوقها وشعورها بالظلم، وضرورة التماسك وأمل واهن أن كل هذا لابد أن يتبدل. تحدق بنا بنظرة قطة إلى أبنائها بين ألسنة حريق. يلوح في عينيها سؤال "أهو قدر مكتوب؟ أم أن العالم يمكن أن يغدو عالمًا آخر؟".

أغرقتْ وجهها فينا تقبلنا كما يغرق العطشان وجهه في نهر. ألقتْ السلام على جدي. سلمتْ على خالي محمود الذي كان جالسًا بأدب أمام جدي في الصالة. واصل جدي حديثًا قطعه مجيء أمي قائلاً لمحمود "أنا عارف إنك شيوعي. بس أنت بقى اللي أنت مش عارفه أن البوليس ح يوصل لك أنت والعيال الصايعة اللي بتمشي معاهم". اعترض خالي باحتجاج مكتوم "يا بابا احنا مش صايعين. بس حضرتك لامؤاخذة مش عارف يعني إيه شيوعية". فز جدي بصدره للأمام " لأ.. أنا

عارف كل حاجة. والزفت اللي في دماغك ده أنا فاهمه كويس قوي". دفعتنا أمي إلى الحجرة كما يهشون على الدجاج لتختلي بنا. زعق جدي فيها "اقعدي شوية يا أمل. أنا عاوزك تسمعي اللي ح أقوله للحمار ده". لا حاجة هنا لتوضيح من هو المقصود بالحمار، لكن من باب الاحتياط أقول إنه خالي محمود.

مكثتْ أمي واقفة وهي تضمنا بذراعيها. لعلع جدي بعد أن وجد لنفسه مستمعًا "أنا فاهم إيه اللي عاجب حضرتك قوي في الشيوعية". أمعن خالي النظر إليه كمن يتساءل "أيعقل أن الرجل العجوز قد فهم شيئًا ما فجأة؟". قال جدي بنبرة ظافرة كمن وضع يده على سر اللغز "عشان ترافق نسوان وتشرب خمر براحتك". قالها وتراجع للخلف بظهره مستمتعًا بمهارته في إصابة الهدف. أضاف "يا أخي صاحب ستات زي ما أنت عاوز. هو أنا كنت قلت لك لأ؟! اسهر يا سيدي واسكر. أنا منعتك؟!". وفنجل عينيه بغضب "لكن لما ييجي شهر رمضان صل وصوم يا ابن الجزمة. يبقى من ناحية أخذت مزاجك من الدنيا ومن ناحية لما تقابل ربنا تبقى في السليم"! زر عينه اليسرى مبتسمًا بنصف وجهه مثل قرصان يعقد صفقة مشبوهة لكنها مغرية لا ترفض!

استدار إلى أمي "كلامي فيه غلط يا أمل؟". قالتْ "بالعكس يا بابا. ده حل وسط ومعقول". تنهد خالي بيأس "طيب أستأذن أنا". صاح فيه باشمئناط "تفضل. يلعن أبوك على أبو ماركس في ساعة واحدة". انصرف خالي محمود بطيبته وجنوحه للسلم. خرج عبد الجواد أصغر أخوالى سنًا على صياح جدي. نظر إليه جدي ورآه يحمل كتابًا في يده. صاح فيه بحنق "بتذاكر؟ ولا عامل إنك بتذاكر؟"، فرجع بهدوء إلى الحجرة الصغيرة التي عاش فيها وتحاشى أن يغادرها مثل الفئران التي تلازم جحورها خوفًا من الخارج. كان عبد الجواد قليل الكلام وحتى عندما كنا نجتمع ساعة الأكل كان يجلس ويمضغ اللقم صامتًا كأنه ضيف أو غريب.

دفعتنا أمي نحو الحجرة. صادني صوت جدي وبيني وبين دخول الحجرة شبر واحد "هات لي يا ابنى الكتاب اللي على السرير". أسرعتُ إلى غرفته واختطفت الكتاب. على غلافه مثل كل كتب جدي التسعة عبارته الأثيرة بخطه الأنيق "وكيف أقول ملكي؟ ولله ملك السموات والأرض". تحت تلك العبارة التي تنضح بالزهد في التملك يبرز – لتوثيق الملكية – توقيع جدي باسمه بالكامل ومهنته كمعلم على المعاش وعنوان بيته! ناولته الكتاب وجريتُ وأنا أسمعه ينادي جدتي "يا نفيسه. فين الطاقية؟". وافاه صوتها من المطبخ "على رأسك". تمتم "معقول؟" وبصوته نبرة أسف على أن وجود الطاقية على رأسه فوت عليه فرصة إرهاق جدتي!

مساء كل خميس نتحلق حول أمي في حجرتنا. الحجرة بسيطة سقفها مدعوم بعروق من الخشب. بها نافذة واحدة صغيرة تطل على الترعة. سرير نوم أخواتي البنات تقابله كنبة أنام عليها. عدة أرفف مفتوحة مثبتة إلى الجدار نضع عليها ملابسنا. مساء الخميس لنا بأكمله، وحدنا مع أمي بعد أن ينام الجميع. ترتفع إلى سقف الحجرة سحابة نور تسرح تحت ضوئها أحلام صغيرة. تفترش أمي الأرض في وسط الحجرة. تمد ساقيها. تضع بينهما وعاء. تقشر بصلاً أو تقوم بتخريط ملوخية ونحن حولها. تستفسر منا عن أحوالنا في المدارس. تطوف من بعيد بأسئلة حذرة حول معاملة جدي لنا. ما تلبث أخواتي البنات أن تصعدن واحدة وراء الأخرى إلى السرير وينعسن تحت الناموسية. أظل مستيقظًا بجوار أمي أترقب لحظة نوم أخواتي حتى تصبح أمي كلها لي وحدي. أضع رأسي على فخذها. أسرح بعيني إلى أعلى. أفتش عن حلم ما، ربما بالسعادة، أو الطمأنينة، أو الحب. تربعت بعد قليل وحدقت بجانب وجهها. سألتها "ألا يمكن مادام والدي محبوسًا أن أكتب أنا المقالات التي كان يكتبها؟ نرسلها بالبريد باسمه ونقبض نحن الراتب؟". سرحت نظرتها مثل موجة في الجو. اعتقدتُ لوهلة أنها تظن أني أسعى لمزاحمة والدي في الصحافة. قلت أطمئنها "لا تخافي. لن نقول لأحد إني أنا من يكتب المقالات"! تجمدتْ أطراف أصابعها الخمس مضمومة على حشوة أرز لورقة عنب. غمغمت من دون أن تنظر إليَّ "طيب".

فيما بعد كنت أتمنى، مقابل أي شيء، لو عرفتُ كيف استقبلت أمي اقتراحي الساذج حينذاك! ما الذي فكرت فيه ولم تفصح عنه وقتها!

من النافذة تسرب مع هواء الليل دق الريشة على العود وصوت جدي الحاد يشرخ الصمت "لما أنت ناوي تغيب على طول.. مش كنت آخر مرة تقول". كان يجلس بعد أن ننام جميعًا وحده في الشرفة تحت مصباح ضعيف مدلى من سقفها يحدق بالفراغ الأسود الشاسع ويناجي سعاد آخر أولاده التي تُوفيت وعمرها أقل من عامين. استيقظتُ مرة بعد منتصف الليل لأدخل الحمام فوجدته في الشرفة. وقفتُ وراء طرف ستارة الصالة أراقبه من ظهره. كان يتلوى ويكتم نشيجه متوسلاً للسماء "يا رب. يا رب"، يدق دقة على العود ثم يهز رأسه ويتلوى مبتهلاً. كان لديه ميل عميق كسيح للفن والأدب تجلى عندما أطلق على خالتي في شهادة ميلادها اسم "زهرة الربيع أنيسة الروح"! هذا الاسم كان عمله الأدبي الوحيد الذي صدر مرة واحدة في سجل مواليد وزارة الصحة. علاوة على ذلك كان يهوى الغناء. يحفظ موشحات قديمة. يتقن العزف على العود. خطه جميل إذا كتب. كانت لديه موهبة ما، تتفتت تحت وطأة طباعه الشخصية كما تتحطم جوهرة من ثقل صخر نشأت في باطنه.

أفطرنا معًا صباح الجمعة. وصبتْ لنا جدتي الشاي في الأقداح. قال جدي لأمي "أنا بافكر أفتح حجرة صغيرة من الشقة على الشارع. أعملها محل بقالة يساعد في المصاريف". لمعت عينا خالي عبد الجواد خوفًا من تحميله عبء المحل فنهض متسللاً كالطيف إلى حجرته. لكن جدي نظر إليَّ قائلاً "بس حد من الأولاد يبقى يقعد في المحل شوية". كنت كل ثلاثة أيام أقوم بتنظيف قفص كبير لتربية الحمام على السطح. أصعد مع جدي. أركع على ركبتي ويدي مثل فأر صغير أمام فتحة القفص. يدفعني من الخلف لأمر عبر الفتحة الضيقة. أجدني محشورًا في الداخل لا أكاد أتمكن من الالتفات. أجمع زبل الحمام. أغسل الأرضية من الوسخ. أغير الماء في الصحون. أضع الحبوب. وعندما أنتهى يسحبني جدي من الخلف كما يسحبون ماعزًا من ذيلها. أنهض أنفض التراب عن ركبتي. أهبط بصفيحة زبل حمام أسمد بها تكعيبة العنب المطلة على الترعة. في المقابل كان إذا اشتمل الغداء على حمام أو دجاج يختصني بقطعة لحم كبيرة، تمتد يده بالقطعة نحوي، بعظمة، كما تتواضع السماء وتنحنى لتوزيع السعد على الأرض المتربة "ده اللي بيساعدني في العشة". أشعر أنه غصبني أن آكل أمام أخوتي أكثر مما يأكلون. الآن يعتزم فتح محل بقالة. المحل غير عشة الحمام. فيه يمكن أن أجلس أبيع وأستلم الفلوس وأردُ الباقي. أقول هذا بعشرة وذاك بعشرين ومن لا يعجبه أقول له "يفتح الله". أتبغدد مثل كبار التجار، وليفهم عيال الشارع أن عائلة الليمون الجرباء صارت من أصحاب المحلات وكبار التجار.

اقتطع جدي جزءًا من حجرة حوالي ثلاثة أمتار في مترين وفتحه، ركَّب للفتحة بابًا خشبيًا على الشارع. علق فوقه مصباحًا بتوصيلة من كهرباء السلم. ثبت إلى الجدار عددًا قليلاً من الأرفف، وضع عليها زجاجات زيت. شاي، سكر، صابون، علب كبريت، برطمانات بها ملبس للأولاد. لم يضع لافتة باسم المحل ولم يسجله. قال "لما تيجي الحكومة تسأل نقول لسه فاتحين". احتفلنا بالمحل الغائر في عمق البيت مثل لطشة سكين. جلسنا أمامه في الشارع على عدة كراسي. وزع خالي عبد الجواد علينا أكواب شربات ثم جلس ساكنًا. كاد الافتتاح أن يكون قاصرًا علينا وحدنا، لولا "ركس" كلب الترعة الأعرج الذي عوى من عتمة قريبة، وامرأة بدوية من الغيطان مرت علينا بالمصادفة فزغردت. ناولها خالي محمود كوب شربات فأقسمت أنها زغردت لوجه الله، وليس ابتغاء لكوب شربات. قالت "ما احنا طول عمرنا عايشين من غير شربات. كان جرى لنا إيه يعني؟" وتجرعت الكوب بنهم دفعة واحدة. أحيت الزغرودة آمال جدي فقال "المحل ده ح يكسر الدنيا". هشت جدتي الناموس عن وجهها فبان في عينيها أمل منكسر.

بعد ليلة الافتتاح شرع جدي في الذهاب بانتظام صباح كل يوم ثلاثاء إلى الموسكي أو كالة البلح. يرجع حاملاً أشياء لو انطبقت السماء على الأرض لا يشتريها أحد. مرة دخل عليَّ بسنجة ترموای لا أدري أين وجدها. قال متنهدًا "ده حديد. يفضل زي ما هو عشرين سنة". حكيت لخالي عبد الجواد فقال لي "جدك مخه تعبان"، قالها ثم انتبه فصاح بي خائفًا "إوعى تقول له إني قلت كده ؟". مرة أخرى عاد وفي يده إطار أصفر مذهب تقشر طلاؤه بداخله صورة رجل عجوز حزين جدًا. وضع الصورة في مكان بارز على أحد الرفوف وتأملها من على مسافة ثم قال "تخيل لو الرجل ده مر من هنا وشاف صورته؟ ح يقعد يفكر لقوا صورتي فين؟ وإيه اللي جابها هنا؟ ح تبقى مفاجأة عجيبة"! أحس أني لم أفهم القصد من كلامه فأضاف بنبرة حكيمة "خلي بالك يا ابنى ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع"! أخذ علبة حلاوة طحينية وصعد بها إلى جدتي وكان تفاؤلها بالمحل قد اشتد عليها فصارت بطيئة الحركة قليلة الكلام.

بعد المدرسة كنت ألزم المحل ساعتين في المساء. أجلس وأسرح ببصري في الشارع الخالي من المارة تقريبًا. وراء ظهري لافتة بخط جدي الأنيق "البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل" ولم تكن لدينا بضاعة. كان عندنا كمون لأن جدتي تستخدمه عمال على بطال. أزرار لأن بيجامته انقطع منها زرار قرب عشة الحمام. زكائب حلبة حصى لأنه توعك مرة فنصحه أحد أصدقائه بالحلبة. كان بالمحل كل ما يلزمنا نحن. ومع الوقت أدرك جدي أننا الباعة وأننا المشترون فتأسف "يعني أنا أشترى الحاجة بقرش وأبيعها لجدتك بقرشين؟ بأكسب مني؟"!

أغلق جدي المحل وكف عن ذكر النهضة الاقتصادية وطلعت حرب. لم تستغرق منه تصفية البضاعة سوى نصف ساعة. أما السنجة التي لم يشترها أحد فقد صعد بها إلى السطح ووضعها هناك مرفوعة فبدا البيت لمن يراه من بعيد مثل ترموای معطل في محطة. بعد ذلك عكف أسبوعًا ما إن يدلدل ساقيه من السرير حتى يشرع في لعن سكان الشارع من طلعة النهار إلي أن يتأهب للنوم ليلاً، يضع رأسه على المخدة وينعس وهو يبرطم لاعنًا إياهم. من أهون ما قاله عنهم إنهم "تنابلة. الشيء يبقى قدامهم ومحتاجينه ويكسلوا يشتروه".

كنا نظن أن المحل آخر ما لدي الرجل العجوز من مفاجآت. لكن حدث أن تعطل صرف معاشه ثلاثة شهور وخنقته المصاريف فقام برهن البيت لعم فرج! لطمت جدتي على خديها وهي تتمنى أن تلطم على خديه. صار عم فرج يتردد علينا أول كل شهر بالبالطو فوق الجلباب وبصوته الخفيض يستلم جنيهين فائدة القرض. بمرور الوقت أمسى عم فرج واحدًا من أهل البيت. يزورنا كلما وجد نفسه ناحيتنا.

يأكل ويشرب شايًا، فإن كان الجو حارًا رقد ساعة في حجرة عبد الجواد يستريح "لحد الشمس ما تنكسر". ثم ظهرت على رف بالحمام "فرشة حلاقة عم فرج". حينذاك كانت شقة الطابق الثاني شاغرة من دون مستأجر، فوسعنا بها على أنفسنا للراحة والدراسة. ذات مساء، حوالي الساعة التاسعة، كنت مع خالي حسين ومحمود هناك. في ذلك الوقت يعم المنطقة صمت رهيب لا تسمع سوى نباح الكلاب ونقيق الضفادع. اشتبك خالاى الاثنان في نقاش حاد ترددت فيه كلمات "الرفاق"، "الضباط الأحرار"، "المطاردون"، "الحزب". صحيح أنني لم أفهم معظم ما كنت أسمعه، لكني كنت مسرورًا أنهما يتكلمان أمامي عن أمور بدا أنها خطيرة. معنى ذلك أنني على صغر سني كنت موضع ثقة واحترام. قال حسين "الثورة أطاحت بالديمقراطية ومزقت دستور السنهوري". حدق محمود بالأرض منصتًا متأهبًا. ما إن انتهى حسين من كلامه حتى اعترض محمود على الفور"أتسمى ما كان قبل الثورة ديمقراطية؟ أم هايد بارك يا حسين؟". كانت لدى محمود عادة أن ينصت إنصات متربص بنهاية الحديث، ينصت وأنت تشعر أنه لا يسمعك لكن يحشد نفسه لينطلق ويناقض ويهدم كل ما قيل. أخذ حسين يسوق له الأدلة على صحة أفكاره وهو يكز على ضروسه. زام محمود كأنما يقلب الحجج والبراهين في عقله ثم رفع رأسه معلنًا موافقته من دون قيد أو شرط على كل ما رفضه للتو جملة وتفصيلاً. كان دائمًا يبدأ بالمعارضة ليثبت أنه لا ينساق ببساطة لأحد. يناكف حتى يطمئن إلى أن الآخرين قد أدركوا أنه ليس سهل الانقياد كما يبدو، وكما هو بالفعل! كان طيب القلب جدًا، ولو أنه ولد في أسرة أخرى لربما تمسك بطيبته وتباهى بها. لكن وجود حسين أخيه بجواره هز ثقته في أن لطيبته قيمة، فالمشكلة التي كان يعجز محمود عن حلها في سنة كان حسين يحلها في ثانية، وما كان يستجديه بالطيبة في شهر يناله حسين بالجرأة في دقيقة. كان لكل منهما طبيعة وكينونة مختلفة عن الآخر، تغير الأقوى منهما الطبيعة الأضعف بمجرد وجودها بجوارها، ليس بالعدوان، بل بالإعجاب، فتدفع الأضعف إلى تغيير كيانه. هكذا صار هم خالي محمود أن ينفي عن نفسه أفضل ما فيه وهو أنه طيب. صار ينفرد بروحه في حجرته بالساعات مشغولاً برفع الأثقال وتربية عضلاته ثم يتمشى أمامنا وعرقه يسيل يهز عضلات ذراعيه ليرى إن كان قد أصبح في نظرنا خشنًا وقويًا أم لا! لكن قوة البدن والعضل لم تفلح في أن تسكب في نظرته ومضة من ألق الروح الشجاعة الذي كان يضوي في عيني حسين! وظل حتى وفاته يبدو مثل مصارع في سيرك قديم نفدت حياته في محاولة لأن تغدو حياة أخرى. كان يتراجع وينسحب من أمام جدي في أي نقاش. أما حسين فكان يواجهه ويتصدى له حتى وصل الأمر بجدي إلى طرده من البيت متذرعًا برسوبه عامين متواليين في

الكلية، فأمسى يزور البيت متسللاً في السر. يأتي في الليل. يقف في الشارع. يطلق صفيرًا مميزًا من تحت الشرفة، فتتسلل إليه جدتي بربطة طعام ومبلغ من النقود في منديل، تناوله ما بيدها وتنحني تقبله وتحتضنه قدر ما تطوله ذراعاها وهي تتلفت خلفها نحو الصالة.

في تلك الليلة استمر النقاش في الشقة العلوية بين خاليَّ، أحيانًا بحدة، وأحيانًا أخرى بهدوء. خلال ذلك كنت أعد لهما الشاي وحين يحتد الحوار بينهما أرسم الجدية على ملامحي. فجأة سمعنا طرقًا على الباب. نظرت إليهما بانتباه. أومأ خالي حسين إليَّ برأسه. فتحت الباب. وجدت أمامي عم فرج بالبالطو والجلباب. ألقى التحية علينا وهو يلهث من صعود السلم. ارتمى على كرسي قرب المنضدة في منتصف الصالة. وقف الاثنان عن يمين عم فرج ويساره. انتظرتُ أن يطلب مني أحد كوب شاي لعم فرج، لكن لم يحدث. سأله خالي حسين بهدوء "أنت بقى لك قد إيه ياعم فرج بتآخذ فوائد على القرض؟". شبك الرجل أصابع يديه أمامه. تململ "إيه لزوم الكلام عن الفوائد دلوقت؟ أنت قلت تعال نحل الموضوع بعيدًا عن الوالد. تعطني فلوسي ونفك الرهن وكل واحد يروح لحاله". قال محمود "يعني جبت ورقة الرهن معك؟". ضرب الرجل جيب البالطو بيده إشارة إلى وجود الورقة. قال له حسين وهو يضغط مخارج الكلمات "معلش. بس بقى لك قد إيه بتآخذ فوائد؟". خفت صوت عم فرج "هو أنا عاوز فوائد يعني؟ أعطني فلوسي وخلاص". اعتمد حسين بقبضتيه على حافة المنضدة ومال بصدره على الرجل بعينين جاحظتين "فلوسك وصلتك من زمان يا فرج".

لأول مرة أسمع ويسمع الرجل اسمه "فرج" مجردًا من كلمة "العم" بما تنطوي عليه من توقير. تمتم متداعيًا "أنا ما غلطتش معكم في حاجة يا ابنى". رد حسين بحزم قاطع "يبقى تسلمني ورقة الرهن وتكتب مخالصة بفلوسك". تطلع فرج إليه باستنكار "إزاي يعني؟ هو أنا كنت استلمت فلوس عشان أكتب مخالصة؟". جذبه حسين من ياقة البالطو بعنف "شوف يا فرج. احنا بالليل. ومافيش صريخ ابن يومين ح يسمعك في المنطقة. لو ذبحتك هنا دلوقت ورميتك في الترعة الدبان الأزرق مش ح يعرف لك سكة". قبل أن ينهى حسين كلامه برق في الجو نصل سكين لا أدري من أين سحبها. وضع طرفها المسنون على عنق فرج "هات الورقة واكتب مخالصة أحسن لك". نبض الصمت بالرعب. غمغم الرجل منهارًا "أنا زي والدك يا حسين". أخرج الورقة بأصابع مرتعدة وناولها لخالي. وقع على استلام مستحقاته وقطرات العرق على جبينه. أخذ يتنفس بصعوبة. تساءل بصوت ضعيف ووجه شاحب "خلاص؟". أجابه حسين "خلاص يا فرج". تمتم "ممكن شوية ماء؟". بل ريقه بجرعة

واحدة. نهض لا تكاد ساقاه تحملانه. خطا أربع خطوات نحو باب الشقة وهو يتلفت وراءه. فتح الباب وانصرف. ظللت أنصت لوقع قدميه الثقيلتين على السلم مأخوذًا بما جرى وأنا أتخيل وجهه منسلاً من باب البيت إلى عتمة الشارع.

في الصباح تقدم خالي محمود من جدي وسلمه الورقتين. لم يصدق عينيه وهو يقرأهما. تطلع لخالي بذهول وتأثر شديدين "دفعت له المبلغ منين؟". ابتسم خالي بتواضع من يعرف عظمة ما قام به "لم أعطه مليمًا. أخذت الورق منه بالعنف الثوري"! وحكى له ما حدث لكن من دون أن يأتي على ذكر خالي حسين كأنما حل المسألة وحده مع عم فرج. تأمل جدي الورقتين وهو يتحسسهما بين أصابعه. كادت عيناه أن تدمعا. نهض في حموة تأثره. قبل رأس خالي محمود "ربنا يحميك يا ابني. ابن الكلب قصم وسطي. كل شهر اتنين جنيه. اتنين جنيه". يبدو أن خالي محمود قرر انتهاز فورة جدي العاطفية ليحنن قلب جدي على مبادئه الثورية، فقال له "لعلمك يا بابا فرج ده من ظواهر المجتمع الرأسمالي الاستغلالي. والعنف الثوري من الحاجات اللي اتعلمناها لما قرينا رأس المال الربوي وفائض القيمة".

قلَب جدي الكلام في رأسه صامتًا. أدرك أن خالي يستخدم نجاحه في فك الرهن للترويج للنظرية، فصده مستهزئًا "وإهمال دراستك تسميه إيه؟ فائض قيمة ولا قلة قيمة؟ أخذتَ الورقة بالبلطجة وكمان ح تتفلسف؟". صحح خالي "دي مش بلطجة يا بابا". لم يكن جدي ينصت إليه. كان يذوب في بسمة صغيرة ناظرًا إلى الورقتين بوله كعاشق يمسك بيدي محبوبته. جاء فك الرهن بعد أن ظهر عليه الإنهاك مؤخرًا من جرجرة عشرة أفواه بحبل معاشه المهترئ. كان نهاية كل يوم ينحني بقلم رصاص على دفتر صغير يحسب المصاريف. يدون كل مليم. قرش صاغ جاز. تعريفة عيش. نكلة خضرة للمحشي. يحسب ويحسب ثم يتوقف غير مصدق. يعيد الحسبة. يبحلق في ورق الدفتر يكاد أن يستعطفه. يتوسل إليه أن يكون إجمالي المصروف أقل، وأخيرًا ينفخ مستسلمًا للحقيقة "بالذمة ده كلام؟ يا أرحم الراحمين". الآن يدور رأسه بخمر السعادة. التفتَ برقبته إلى الداخل "يا نفيسة. اذبحي لنا جوز حمام". جاءت جدتي تجفف يديها بمنشفة "خير في إيه؟". نظر إليها باستعلاء "أنا فكيت الرهن اللي على البيت". صاحت "يا خبر أبيض. ألف حمد وشكر. إزاي؟". مط شفته "تصرفت. هي دي مشكلة يعني؟". سدد لخالي نظرة محذرة منذرة "قوم يا واد يا حمار شوف دروسك".

تصورنا بعد إنقاذ البيت بمقال رأس المال الربوي أن جدي سيهدأ ويكف عن إطلاق سهام غضبه على العالم. لكن أيحيا شاعر من دون قصيدة؟ أو منشد من غير نغمة؟ هكذا تفتق ذهنه عن معركة يخوضها بهدف جليل. الهدف هذه المرة كان

نحو تسعة قروش ونصف. مبلغ لو جمعته شهريًا على مدى أعوام مديدة ستجد أنه جدير بامتشاق السيوف وخوض المعارك. لا يدري أحد من أين هبطت فكرة "التسعة قروش ونصف" على الرجل العجوز. كل ما أذكره أنه عاد ذات يوم إلى البيت حاملاً كتابًا بعنوان "المنازعات العائلية في الديار المصرية". عكف عليه ثلاثة أيام. يقرأ. يتوقف. يزوم. ينقر بكعب القلم غلاف الكتاب. يفكر. يسجل ملاحظة على ورقة. يتنهد. يزر عينيه. في تلك الأثناء بدا الخوف على جدتي التي علمتها علاقة جدي بالكتب أنه ما إن يظهر كتاب حتى تحل الكارثة.

أخيرًا أدلى جدي بتصريح عن مشروعه الحربي الجديد "دلوقت يا نفيسة مش أنتِ لك نصيب في بيت أبوكِ اللي في حلوان؟". أجابته مستغربة "قصدك الفيللا اللي عايشة فيها سهير أختى؟". قال "أيوه. مش لكِ نصيب فيها؟". اندهشت "بس دي حاجة من زمان قوي واحنا سبنا الفيللا لسهير". قال "أنتِ عارفة مفروض يدخل لكِ منها قد إيه كل شهر؟. تسعة قروش ونصف. وبقى لكِ عشرين سنة ما أخدتيش حقك منها. شوفي دلوقت يبقى لكِ كم؟". تركتْ طبقًا كان بيدها وصاحت "مش فاهمة قصدك إيه؟". فسر لها "قصدي يعطوك حقك. أولادك وجوزك أولى بفلوسك". لزمتْ الصمت. أضاف "يا إما ح أرفع عليهم قضية"! هوت العبارة كالمطرقة على رأسها. كان معه توكيل عام منها بالتصرف والبيع والشراء ورفع القضايا وكل ما يخطر بالبال. وقفت مهتاجة "إذا رفعت قضية ح أسيب لك البيت وأمشي. اعمل معروف انا مش عاوزه حقي". تلك كانت المرة الأولى والوحيدة التي فردت فيها اليمامة جناحيها في وجه الصقر. قال بتردد "طيب اسمعي المذكرة القانونية. أنا اللي كاتبها بنفسي". سدتْ أذنيها ورفضت أن تسمع أي شيء. انصرفت إلى الداخل. كان خالي عبد الجواد واقفًا مستندًا بظهره إلى الجدار فنظر جدي إليه يحاول أن يكسبه لصفه" يا ابني ده مبلغ وقدره. أنا حسبته على عشرين سنة يطلع بالفوائد خمسين جنيه". هز عبد الجواد رأسه هزة محايدة جبانة لا يفهم منها شيء محدد.

لم يرفع القضية. ظلت المذكرة التي كتبها بنفسه مركونة على سطح الكومدينو بجوار سريره. كل صباح يتأمل بحسرة خطه الأنيق على صدر صفحتها الأولى "مذكرة قانونية من إعداد مراد أفندي فهمي". مع ذلك حققت له القضية التي لم يرفعها بعض الامتيازات، فقد أصبح لديه الآن موضوع يتكلم بشأنه من طلعة النهار حتى المساء، ينفس من خلاله عن غضبه من فشله في أن يكون ثريًا ووجيهًا، وعن شعوره المرير بإخفاق أولاده في الجامعات ونجاحهم في المعتقلات واستيائه الباطني العميق من ضآلة معاشه الشهري، وناموس الترعة الذي امتص من دمنا ما يكفي لإنقاذ كتيبة جرحى. صار ما إن يجلس إلي المنضدة وقبل أن يضع لقمة في فمه يذكر

جدتي "أنا عشان خاطرك أنت بس يا نفيسه". لا يكمل الجملة لأننا نعرف بقيتها "لم أرفع القضية". أصبح بمقدوره في أية لحظة أن يهدد الجميع "قسمًا بالله أرفعها"! هكذا حتى توفيت جدتي. ثم مرض ورفض أن يقيم معنا لترعاه أمي في بيتنا. لم يستطع أن يغفر لها بعد مرور كل تلك السنوات الطويلة هروبها وزواجها بغير موافقته. رجاه والدي من دون جدوى. توسلت إليه أمي. قبلتْ يديه وبكت "أنت يا بابا تحملتني أنا وأولادي ثلاث سنوات كاملة". فيرد عليها " هذا كان واجبي كوالد نحو ابنته"، إلى أن توفى بعد ذلك بعامين.

كانت ذاكرتي في السادسة قادرة على حفظ صورة جدي، لكن التذكر لا يعني الإدراك، لأنني لم أفطن إلى أن ذلك الرجل العجوز تحمل بمفرده عبء طفولة جائعة لم يكن لها سواه. تحمل بنزقه وصبره. برأسه المرفوع الذي لم يحنه لأحد. بعزفه الرديء المشحون بالعاطفة على العود في الليل. وبذلك أدى دوره في الحياة على أفضل وأنبل وجه.

***

صباح كل يوم تقف جدتي في المطبخ تعد لي "سندويتش" لآخذه معي إلى المدرسة. تفتح نصف رغيف. تقتطع شريحة جبن بالسكين وتدعكها في الخبز مرة واثنتين باهتمام كأنها تمسد كتفي بحب. ترفع نصف الرغيف إلى ضوء شباك صغير بالحائط. تتطلع إلى الزوايا التي لم يصلها الجبن. تدفع بعضه بتأني إلى هناك كأنما تطعمني. تضغط سطح السندويتش إلى قاعه بأطراف أصابعها كأنها تضمني. تستدير نحوي. تناولني إياه. تقوم بذلك عوضًا عن الانحناء واحتضاني وقول "أنت حبيب جدتك يا صلاح ونور عيني"، أو أن تطبع قبلة على جبيني "والنبي خلي بالك وأنت تعبر الطريق". كنت أعرف أننا نتكلم بالسندويتش، فأقصد المطبخ كل صباح، أقف وحقيبة المدرسة بيدي منتظرًا أن تغمرني بعطفها تحت ضوء الشباك. في طفولتي لم أعرف حنانًا إلا من قلب تلك اليمامة الطيبة التي لم تحسن التعبير.

خرجت بحقيبتي لأذهب إلى المدرسة. كان الطريق إليها طويلاً وثقيلاً لذلك كنا أنا والعيال نتجمع في منتصف الشارع عند بيت ماهر وعماد وأختهما عفاف اللذيذة ومن هناك نمشي إلى المدرسة. اخترنا بيت اللذيذة نقطة للتجمع بأمل أن نراها. كانت أمها ممرضة لها عين تفلق الحجر وصوتها إذا تشاجرت يصل آخر بيت في المنطقة، أما أبوها فكان ضابطًا متقاعدًا يسكر أغلب الوقت. أطلقنا علي عفاف "اللذيذة" لأنه كان بوسع أي منا أن يمد يده تحت البلوزة ويتحسس نهديها الصغيرين

من دون اعتراض يذكر. في تلك الأثناء كانت عفاف تحدق بمن يقوم بذلك بتركيز، كأنما تتأمل شيئًا مثيرًا يقع في مكان بعيد خارج نهديها. اليوم توقفنا هناك لكن لم يهبط إلينا سوى أخويها عماد وماهر المحتال، فمضينا على الطريق مكسوري الخاطر. وهمس ربيع الأهطل في أذني "اللي ماشافش اللذيذة يعزل من الجيزة" وأخذ يقهقه.

عدنا من المدرسة وفوجئنا ونحن نقف أمام شاطيء الترعة في عز الحر بماهر المحتال يفرد ذراعيه في الهواء صائحًا بنا "يا عيال. النهارده الساعة خمسة العصر عندنا سينما في البيت. فيلم حربي والتذكرة بنكلة". كنا قد سمعنا عن السينما لكننا لم نكن قد شاهدنا فيلمًا من قبل. ترددنا في تصديق ماهر لكن شوقنا لرؤية فيلم تغلب على شكوكنا. قبل الخامسة بدقائق كنا نقف صفًا طويلاً على باب شقة اللذيذة وماهر المحتال وبيد كل منا نكلة. استقبلتنا عفاف شخصيًا وقادتنا عبر الصالة إلى حجرة كبيرة بشباك كبير غطوه ببطانية غامقة. أشارت إلى الأرض فجلسنا في مواجهة ملاءة بيضاء مفرودة من أعلى إلى أسفل. خلف الملاءة من ركن ما انبعث ضوء "لامبة" جاز أصفر خفيفًا. قعدنا في صمت وعيوننا مفتوحة لآخرها على الملاءة نترقب العرض. بعد لحظات سمعنا صوتًا من خلف الملاءة "نقدم لكم الفيلم الحربي صراع حتى الموت". ضحك ربيع الأهطل "هيء هيء. ده صوت الواد عماد. أنا عارفه"! رد الصوت من وراء الملاءة "ممنوع الكلام أثناء العرض"! كتم ربيع ضحكته في كمه قائلاً "هو الواد عماد . أنا عارفه". بدأ الفيلم بظلال شخص يرفع قدمًا ويهبط بالأخرى وهو واقف في مكانه كأنما يسير، ثم لاح على الملاءة ظل رجل آخر يرفع عصا طويلة كالسيف زاعقًا "عليك اللعنة"! فأبرز الأول عصا وصاح "yes"! أخذ الاثنان يتبارزان من دون أن نفهم إن كان المحاربان من الرومان أم من العرب أم "الطلاينة"، ولا عرفنا سبب القتال بينهما، لكن المعركة استمرت على أشدها عشر دقائق كانت تدوي خلالها عبارة "عليك اللعنة" ومن بعدها "yes"! ونحن نتابع "الصراع حتى الموت" بعيون مفنجلة إلى أن سقط واحد من الاثنين متأوهًا على الأرض فأعلن الثاني بصوت وقور "the end"، ثم برز إلينا من وراء الملاءة ماهر وأخوه عماد ينحنيان أمامنا بتواضع كبار نجوم السينما. ظللنا لحظة صامتين حتى اتجهت "اللذيذة" إلى الشباك الكبير وأخذت تزيح عنه البطانية. رحنا ننهض من على الأرض ونحن مازلنا مأخوذين من الظلال التي تحركت أمامنا ومن الجو المعتم إلا من نور اللامبة الأصفر. اشتعل خيالنا مما شاهدناه، لكن كان ثمة وسواس بأن ما تفرجنا به للتو لا يمكن أن يكون فيلمًا وأننا أغلب الظن وقعنا ضحية خداع دنيء!

رافقنا ماهر إلى باب الشقة وهو يعدنا بجزء ثان قادم من فيلم صراع حتى النهاية. ذكره أحدنا بأنه "صراع حتى الموت" فقال "آه. أيوه. أيوه. حتى الموت. صح". تمتم سمير أخو نصحي ونحن نهبط على السلم "الواد ماهر طلع له بحوالي ثلاثة أربعة صاغ من الهجص ده". علق ربيع "عشان إحنا حمير".

صباح اليوم التالي ونحن في طريقنا إلى المدرسة استفسر نصحي من ماهر "الفيلم اللي شفناه عندكم امبارح كان فيه كلمات عربي وكلمات انجليزي؟". أجاب ماهر من دون ذرة تردد "طبعا. ترجمة". سأل نصحي "لكن الترجمة كانت من إيه لإيه؟". لم يجد ماهر صعوبة في القول "لو كنت سمعت العربي الأول وبعدين الانجليزي يبقى الترجمة من عربي لانجليزي. حسب أنت سمعت إيه الأول".

دخلنا من بوابة المدرسة ولاحظنا جلبة وحركة في مبنى الإدارة والحوش. تفرقنا نحو قاعات الدرس. صعدت إلى الطابق الثاني حيث القاعة التي أدرس بها. جلستُ. كان المعلمون يروحون ويجيئون في الممرات بتوتر فشعرنا بأن شيئًا غير اعتيادي قد وقع. بعد قليل دخل القاعة عبد الواحد النائم، أنحف تلميذ، كان دائمًا آخر من يدخل القاعة لأنه يصعد السلالم ببطء ويمشي ببطء ويتحرك بحذر وتعب ويحرك رأسه كأنه حمل ثقيل علي رقبته. يتجه بعينين شبه مغمضتين إلى الدكة الأخيرة الملاصقة للحائط. يجلس خلفي. يضع رأسه على سطح المكتب وينام من أول اليوم الدراسي إلى جرس الانتهاء. كان من عمرنا، في نحو السابعة، مع ذلك كانت نظرته خامدة مغيبة عن الدنيا مثل رجل طاعن في السن. كنا نضع له اللقم بقطع من الجبن أو الحلاوة بالقرب من فمه. يفيق من وقت لآخر، لحظة، يرى اللقم، يمد يده إليها ببطء. يفتح فمه ويدس فيه لقمة ويغلقه عليها مثل سمكة تتنفس. ثم يعود إلى النوم. لو أنه جلس على دكة أخرى بعيدًا عني، لكنه كان يجلس خلفي مباشرة وأشعر طوال الدرس بأنفاسه الواهنة على ظهري مثل استنجاد خافت بلا أمل. كف المعلمون عن الاهتمام به أو مراجعة واجباته أو توجيه الأسئلة إليه لأنه كان يستغرق وقتًا طويلاً إلي أن يقف على قدميه ثم يتطوح مكانه بعد ذلك بعينين مغمضتين ورأسه يتأرجح من دون أن يفتح فمه بكلمة. لم نعرف، ربما لم يهتم أحد بذلك، ما الذي يعاني منه أو ما الذي يعوزه. اعتدنا على وجوده بهذه الحال، نائمًا حتى ينتهى اليوم فيوقظه أحدنا. ينهض بمشقة ويسير بوهن محاذرًا أن يصدمه أحد من العيال الذين يطاردون بعضهم البعض أو الذين يتواثبون فوق الدكك ويضربون الآخرين بالحقائب على رؤوسهم. يسير عبد الواحد مغادرًا المدرسة ببطء، بنظرة غائبة مغيبة عن الدنيا من دون أن ينطق بكلمة، كأنه يتألم من وجوده حيًا.

كانت الحصة الأولى حساب اختصاص الأستاذ وليم، لكن دخل علينا بدلاً منه الأستاذ عبد القادر مدرس اللغة العربية مضطربًا ترتجف بيده ورقة وأعلن من دون مقدمات بصوته الجهير "يا أولاد! ياأولاد! اليومين الجايين خليكم في بيوتكم. من بكره ماحدش ييجي المدرسة، انجلترا وفرنسا وإسرائيل شنوا الحرب على مصر والجيش محتاج المدرسة ثكنة للعساكر. خليكوا في بيوتكم لغاية ما الحرب تخلص". بدا على وجهه انفعال غريب حزين متوهج. دار بقدميه في اتجاه باب القاعة ثم عاد بهما. شد طرف جاكتته إلى أسفل صائحًا فينا بصوت مختنق "يا أولاد.. ياأولاد". ثم هرول خارجًا وهو يضرب فخذه بالورقة التي بيده ضربات متوالية بحركة عصبية.

لم نفهم بالضبط ما الذي تعنيه كلمة "الحرب"؟. كل ما شعرنا به أنها حدث كبير. زاط العيال. نظر ربيع الأهطل إلينا متسائلاً "مفيش مدرسة وح نقعد في البيت؟!". هز نصحي رأسه بالإيجاب. قال ربيع بسرور "يا ترى الحرب بتقعد قد إيه؟". سمعنا جرس المدرسة يدق بلا توقف فخطفنا حقائبنا هابطين إلى الحوش ونحن نرتطم ببعضنا البعض وخرجنا متدافعين من البوابة.

في طريق عودتنا إلى بيوتنا كانت الشوارع إما خالية أو تشغى بحركة مضطربة. دخلت البيت. رأيت جدي وخالي محمود وخالي عبد الجواد جالسين في الصالة بالقرب من الراديو ورؤوسهم محنية على الراديو ينصتون باهتمام إلى ما يذاع. سمعت عبد الناصر يقول "أيها المواطنون أحب أقول لكم إن مصر كانت دائمًا مقبرة للغزاة وأن جميع الإمبراطوريات التي قامت على مر الزمن انتهت وتلاشت حينما اعتدت على مصر وبقيت مصر وبقي شعب مصر واليوم أيها الأخوة ونحن نقابل العدوان والاستعمار الذي يريد أن ينتهك حريتنا وإنسانيتنا وكرامتنا. اليوم الآن الأوامر للقوات المسلحة القتال حتى الموت. ح نحارب من بيت لبيت ومن قرية لقرية. النهاردة ثباتنا هو اللي بيقرر مصيرنا. ثباتنا هو اللي بيقرر مستقبل وطننا. شعارنا سنقاتل ولن نستسلم. أنا هنا في القاهرة ضد أي غزو سأقاتل معاكم. ولادي موجودين معاكم في القاهرة ما طلعتهمش بره ومش ح أطلعهم بره. سنقاتل لآخر قطرة دم. لن نستسلم أبدًا. وسنجاهد ونكافح وننتصر بإذن الله". تعاقبت بعد ذلك طبول مارشات عسكرية، بينما كان خالي عبد الجواد يبحلق في جدي بصمت. كان في السنة الثانية من الثانوية. لقنته حياة أخويه بما انطوت عليه من تمرد وإخفاق درسًا واضحًا أن ينأى بنفسه عن السياسة فالتزم بالتحصيل العلمي، وكان إذا قال أحد في حضوره "الجو حار اليوم" يدير العبارة في رأسه بحذر، يقلبها على وجوهها المختلفة، متطلعًا بصمت وخوف إلى من حوله قبل أن يقول "نعم" أو "لا". نهض خالي محمود منفعلاً "إحنا مانقدرش نقعد ساكتين كده". بدا التوتر على وجه جدي ولم يهزأ كعادته بما قاله

محمود، لكنه لسبب ما راح يحدق بي بنظرة مركزة. قلتُ "والله يا جدي هم اللي قالوا لنا مافيش مدرسة لغاية الحرب ما تخلص". عبرتْ عينيه سحابةُ حنانٍ نادر وغمغم "قمْ كل لقمة مع أخواتك".

صباح اليوم التالي كان واضحًا أن المدارس مغلقة من عيال الشارع الذين تجمعوا حلقات يلعبون قرب الترعة. رحتُ ألهو معهم بالوثب إلى المياه والاستمتاع بالطرطشة. جلست سعاد أخت نصحي تحت شجرة عند حافة الشط تتأملنا مسندة خدها إلى قبضتها. شبعنا من اللهو بالمياه فخرجنا نجري إلى الغيطان فقامت سعاد تجري معنا لنقطف بلح النخيل. جرتْ بجواري إلى أن تعبنا. توقفنا نلتقط أنفاسنا. قالتْ مبتسمة "عجبك فيلم صراع حتى الموت اللي عمله ماهر وأخوه؟". ابتسمتُ بخجل "ضحكوا علينا. حطوا "لامبة" جاز وراء ملاءة وخدوا فلوسنا". كان لسعاد عينان خضراوان ساطعتان تنظران بلوم رقيق. لم أر قبل وجهها وجهًا بهذا الجمال ولا عينين بهذا العمق والصفاء العذب. كانت من سني تقريبًا أو تكبرني بعامين. شيء ما فيها كان يشدني إلى إدامة النظر إليها إذا صادفتها أمامي. أتوقف أمامها وأتملى منها بصمت. كانت تشعر بانجذابي هذا. وأنا أيضًا أشعر بانجذابها . لم نكن لا أنا ولا هي نفهم أو نجرؤ على فهم مشاعرنا. لم نكن قادرين حتى على تحديد معنى تلك الرعشة الغامضة الحلوة التي تجمعنا على استحياء، ولم نجد الشجاعة للمضى بمشاعرنا أبعد من خط الطفولة الأبيض.

رجعنا من الغيطان على مهل. كانت الدنيا قد أعتمت، فتفرقنا عائدين إلى بيوتنا. مشتْ سعاد بين أخويها نصحي وسمير في اتجاه بيتهم. تمتم ولد من الأولاد وهو يوميء برأسه إلى البيت ذي الطابقين الذي تقصده سعاد "بيت المسيحيين". لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها هذه العبارة فتستوقفني وتشعرني أن ثمة شيئًا ما مبهمًا يميز أولئك الناس عنا ويعزلنا عنهم. دخلتُ البيت وسألت جدتي "يعني إيه مسيحيين؟". استلت الإبرة من قماش سروال قديم ترتقه وقضمت الخيط بأسنانها قائلة "نحن مسلمون وهم مسيحيون وخلاص. فيه أرز وفاصوليا في المطبخ رُح كل". زادت كلماتها من غموض الحاجز غير المفهوم بيني وبين سعاد. كل ما أدركته حينذاك أن ثمت فارقًا ما، لكنه فارق حاسم لم تشأ جدتي أن توضحه. ثمت شيء يقف حائلاً بيننا، لا أستطيع أن أفهمه، ولا أن أزيحه، أو أتخطاه. ظل الأمر هكذا إلى أن كبرتُ، من دون أن تمحى من قلبي نظرة سعاد المرسلة بلوم خفيف، وظل عتاب نظرتها الرقيق عالقا بروحي مثل دمعة تترجرج ولا تسقط.

قال لي جدي وأنا خارج من حجرة النوم "خذ طبق كبير ورح هات لنا شوية عنب من التكعيبة". ذهبتُ وملأت الطبق بعنب أسمر مسكر وعدت به إلى الصالة. كانت

جدتي تخاطب خالي محمود وجدي "حد لازم يعرف لنا أمل عاملة إيه؟ فين هي؟ مش قفلوا المدارس؟". أثار حديثها قلقي على أمي. قال خالي محمود "يا ماما أمل بكره ولا بعده ح تلاقيها هنا. ما تخافيش". بالفعل ظهرت أمي صباح اليوم التالي. كنتُ في الحجرة مع أخواتي وسمعتُ صوتها تقول "شفتوا اللي حصل؟ الحرب؟!". خرجتُ إلى الصالة. رأيتها واقفة أمام جدي وبيدها هذه المرة حقيبة كبيرة منتفخة. قبلتني وسألتني على الفور"أخواتك كويسين؟ فين هم؟" قلت "في الحجرة جوه". اتجهتْ وهي تمسك بقبضتي إلى المطبخ. قبلتْ جدتي ودستْ في صدرها مبلغا من النقود وجدتي تقول لها "ليه كده يا بنتي مافيش لزوم والله"، فغمرتْ رأس جدتي بالمزيد من القبل وهي تربتْ على ظهرها ثم دخلتْ إلى أخواتي وأنا خلفها.

نامتُ واستيقظت عصرًا. جلستُ مع أخوالى وجدتي وأنا وأخواتي حولها. غمزتْ لي بعينها ونهضتُ. تبعتها بعد قليل إلى الشرفة. وقفنا نشاهد الترعة أمامنا والغيطان خلفها وعلى اليمين تكعيبة العنب ترسل شذاها في هواء رقيق. انحنتُ عليَّ وهمستْ "بكره الصبح ح نزور بابا. بس ما تقولش لأخواتك. ما أقدرش آخد غير واحد بس. ح نقول لأخواتك إننا رايحين نزور واحدة قريبتنا عيانة. فاهم؟". سألتها "ما أقولش حتى ولا لجدي وجدتي؟". قالت "لأ . جدك وجدتك عارفين. ما تقولش لأخواتك عشان ما يزعلوش ويقولوا اشمعنى أنت". في الصمت، في الليل، تحت الضوء الأصفر للامبة المدلاة من سقف الشرفة غمرني شعور غريب. لم أكن أذكر من أبي سوى وجه قلق مضطرب في شقة العباسية لرجل طويل القامة واقف أمام مكتبة صغيرة إلى جوار شخص بجلباب وضابط شاب على كتفيه نجوم صفراء. كان الضابط ممسكًا بكتاب يقلب صفحاته باهتمام. لا أدري كيف أو من أين ظهرتُ أنا ووقفت قرب والدي، ورأسي يصل إلي ركبتيه بالكاد، أراقب المشهد من دون أن أفهم شيئًا. هز الضابط الكتاب وناوله للرجل ذي الجلباب "خذ هذا أيضًا". قبل أن يدس الرجل الكتاب في جوال صغير معه اندفعتُ بين أقدام الرجال الثلاثة وانتزعت الكتاب من يدي الرجل صائحًا "دي حاجة بابا". استدار الضابط نحوي. تأملني بابتسامة لطيفة. أحنى أبي رأسه بوجه قلق يرجوني "هات الكتاب يا صلاح". أخفيتُ الكتاب خلف ظهري "لأ. ده بتاعنا". أخذ والدي الكتاب من يدي بالقوة. نادى أمي "يا أمل. تعالي خدى صلاح من هنا".

بعدها بشهور اختفى والدي ولم يبق في ذاكرتي سوى وجهه القلق. الآن تقول أمي إننا سنرى والدي غدًا صباحًا. لم أكن أفهم من انقطاع والدي عنا سوى أنه تركنا، أيًا كان السبب، فغمرني من ذلك شعور غريب بالعتاب، وشملتني رجفة مثل جذور نبتة

نُزعت وألقيت تحت شمس حارقة، والآن صباح غد يعيدونها إلى الأرض التي انتزعت منها.

في الصباح كانت أخواتي نائمات وأنا أرتدى ملابسي وأتلفت إليهن حريصًا ألا يصدر منى صوت. خرجتُ مع أمي تشيعنا نظرات جدي وجدتي بعطف وتشجيع. قطعنا طريقًا طويلاً ومرهقًا إلى أن بلغنا مبنى ببوابة وحرس. دخلنا وسرنا حتى حجرة المأمور. جلسنا هناك متلاصقين على دكة خشبية. كان الطريق والانتظار قد أرهقاني فأسندت رأسي على ذراع أمي لأنام، ثم دخل علينا والدي من الباب المقابل لنا. كانت يده اليمنى مقيدة بحديد ليد الحارس اليسرى، وما إن رآنا حتى تهلل وجهه وضحك بقوة. رفع معصمه ومعصم الحارس المقيدين عاليًا في الهواء، وقال من عند الباب ليبعث الجرأة في نفسي "انظر! (وأومأ برأسه ناحية الشاويش) لقد قمتُ بسجن هذا الرجل لأنه شقي!". زحزحني من على الدكة وجلس بجواري مبتسمًا يحيطني بحنان كالعطر يسري حولي من دون أن أراه. أخذ يمعن النظر فيَّ يستوثق إن كانت حكايته قد انطوت عليَّ أم لا، وأسعفتني طفولتي على قلة سنواتها فابتسمتُ بدوري لأوحي له أنني صدقتُ أنه حر وأن الحارس العجوز هو المحبوس! كان هذا سره الذي عاش به وخلق به دنيا أخرى يمشي فيها حرًا والسجان مقيداً! قال لأمي وهو يمسك بيدها "اطمئني سنخرج قريبًا". في طريق العودة للبيت لم يفارقني صوت والدي. كنت أفكر كيف يمكن للإنسان أن يكون قويًا في قبضة الآخرين؟

نمتُ طول الليل أحلم بأن والدي معنا. كنتُ أتقلب وأنا نائم وأريد أن أقول لأختى نور إنني رأيت والدي. لكن أمي كانت قد منعتني تمامًا. فقط كنت أريد أن أخبر نور، لأنها كانت تكتب كل يومين أو ثلاثة خطابًا لأبي، تسطر فيه كلمتين أو ثلاث وتضعه تحت وسادتها، إلى أن وجدتْ جدتي الخطابات وهي تغير كيس الوسادة. أردتُ أن أقول فقط لنور أختي إن والدي بخير، وأن أصف لها الزيارة لكن لم أستطع. كنت مؤرقًا فنهضت والجميع نيام على ما بدا لي أنه همس في الشرفة. اتجهت إلى هناك وعيناي نصف مغمضتين. وجدت خالي محمود في الشرفة محنى على سورها وخالي حسين واقفًا في الشارع وهما يتكلمان بصوت خفيض. أحس بي خالي محمود فصمت واستدار. رآني فقال لي "خلي بالك عشان جدك ما يطبش علينا". ظللت واقفًا أتطلع إلى الداخل. سمعتُ خالي حسين يقول لمحمود "ما ينفعش كده. لازم نعمل حاجة. نتطوع في المقاومة الشعبية. نعمل منشورات. أي حاجة" قال محمود "عندك حق". قال له حسين "بكره لازم نقعد عند هاشم نشوف ح نعمل إيه. أمك سابتْ لي أكل؟". قال محمود "أيوه" وناوله ربطة طعام، فانصرف والدنيا ليل.

في الصباح أرسلتني جدتي لأشتري فول مدمس وخبز وجبن أبيض. كان الناس في كل مكان يتكلمون عن الحرب. عدتُ بالطعام فوجدت أمي مستيقظة تنتظرني بقلق. أفطرنا وخرجتُ إلى الشارع. كان العيال يلعبون "الترونجة" وهي مثلث يرسمونه على الأرض ويضعون في وسطه بلية زجاجية، ونقوم بالتصويب عليها ببلى آخر من بعيد. انضممتُ إليهم. وعندما اشتد الحر اتجهنا إلى الترعة. كان ماؤها يجرى عكرًا تسبح على سطحه أوراق شجر وعلب صفيح. خلعنا ملابسنا وبقينا فقط بالغيارات الداخلية. قفزنا إلي الماء واحدًا بعد الآخر. قال ربيع الأهطل وهو يدفع بذراعيه المياه من حول صدره "الله. مافيش أوسخ من كده ميه". فجأة سمعنا من بعيد صيحة مبهمة. خرجنا. الصوت جاء من ناحية الكوبري الصغير الذي يصل ضفتي الترعة. لمحنا "باراشوت" أبيض يتلوى هابطًا من السماء بإنسان يرفس الهواء بساقيه. خطفنا ملابسنا من على الشط وعدونا بغياراتنا الداخلية المبتلة. هبط الباراشوت قرب بيت هاشم المطل على الكوبري. وصلنا ونحن نلهث فرأينا جنديًا أبيض الوجه بشعر أصفر قابعًا في الأرض يحاول أن يسلك نفسه من حبال الباراشوت. كان بمفرده، ألقت به الريح وسوء الحظ عندنا. قال نصحي وهو يتراجع "عسكري انجليزي". قبل أن يتم جملته كان عدد من الفلاحين قد وصلوا من الغيطان وطوقوا العسكري. نزل هاشم من بيته وخلفه خالي حسين يتقدمان نحونا. بعد عدة كلمات مع الجندي المبهوت تولى خالي حسين وهاشم "جررته لتسليمه للبوليس. صاح العيال وزيطوا خلف العسكري "يا عزيز يا عزيز.. كبة تآخد الانجليز". فيما بعد صرت أحكي حكاية العسكري الانجليزي بادئًا بقولي "عندما قمتُ بأسر العسكري الانجليزي"، وكان كل من العيال الأربعة الذين حضروا معي الواقعة يبدأ الحكاية بقوله "عندما قمتُ بأسر العسكري الانجليزي". عيال الشوارع المجاورة صاروا ينسبون ما جرى إلى أنفسهم بادئين كلامهم بعبارة "عندما قمنا بأسر.." حتى ضاعت الحقيقة ولم يعد أحد واثقًا إن كان ثمة عسكري إنجليزى تم أسره فعلاً أم أنها خيالات عيال صغيرة. ماهر كان يحكي أنه ضرب العسكري سيف يد وطرحه أرضًا فتأوه الانجليزي قائلا "أوكي" علامة استسلام. ربيع الأهطل أصر أنه أمسك العسكري من زمارة رقبته وهزها للأمام والخلف مزمجرًا "جاي تعمل إيه عندنا يا ابن الجزمة؟" فجحظت عينا العسكري واغرورقتا بدمع الندم متأسفا "سامحني يا ربيع"! أما أنا فقد قيدتُ يديه من الخلف وسلمته للشرطة فأثنى علىَّ المأمور "مصر كلها فخورة بك يا صلاح".

بعد أسر العسكري الانجليزي وقفت عند الكوبري أنتظر عودة خالي حسين وهاشم من قسم الشرطة. هناك تذكرت عبد الواحد. تذكرت أننا انصرفنا آخر يوم من المدرسة وعبد الواحد نائم داخل القاعة. تخيلت أنهم أغلقوا المدرسة وبوابتها الحديدية

بعد خروجنا وظل عبد الواحد نائمًا وحده على الدكة. ثم استيقظ بعد ساعتين أو ثلاث، فلم يجد أحدًا في الصمت حوله. ظل يحاول أن يرفع رأسه على رقبته، ثم نهض بعد فترة وسار ببطء بين الدكك محاذرًا أن يرتطم بشيء. هبط ووقف أمام بوابة المدرسة. لا تسعفه قواه على الصياح ولا على القفز. فظل واقفًا هناك وراء البوابة.. إلى متى؟ هل فتحوا البوابة فيما بعد فوجدوه مرميًا تحت السياج متجمدًا مثل عصفور صغير؟

ظهر خالي حسين وهاشم من بعيد. اقتربا وحين وصلا إليَّ أمسك خالي بيدي ضاحكًا "شفت الانجليز جبناء إزاي؟ تعال بقى أما أوريك المخبأ بتاعنا". قادني إلى بيت هاشم المطل على الترعة. كنت قد سمعتُ عن البيت أكثر من مرة، ذات يوم قال لي خالي محمود "عاوزك تيجي مرة معاي أوريك البيت اللي ساكن فيه هاشم. احنا بنبقى هناك. لو جدتك أو جدك تعب فجأة تيجي تقول لنا. بس ما تجيبش سيرة البيت لحد خالص؟". هززتُ رأسي بالموافقة، لكن لم تسنح فرصة ليريني البيت الذي كنت ألمحه من بعيد مثل قلعة مغامرات رجال عظام، يرتفع في الخلاء على ربوة عالية، أشبه بمنارة في بحر، له شكل مثلث زاويته نحو الترعة وقاعدته على أرض مغطاة بأعشاب الحلفاء. الآن أدخل وأصعد وراء خالي وهشام على سلم حلزوني ضيق يتسع لفرد واحد. شقة واحدة في كل طابق. توقف هاشم في الطابق الثالث وفتح باب الشقة. دخلنا. كانت عبارة عن صالة وحجرة نوم صغيرة والمنافع. في الصالة كنبتان بكسوة مهترئة بينهما منضدة. في كل ناحية تناثرت كتب وزجاجات فارغة وأقداح وملابس. قال خالي لهاشم "إيه رأيك؟ يتهيأ لي التناقض مع السلطة العسكرية الفاشية أصبح ثانوي والتناقض الأساسي دلوقت مع الاستعمار؟ لازم نتطوع في المقاومة الشعبية؟". قال هاشم بسأم "طيب قبل حكاية التناقض دي نسخن الفول الأول ونآكل لقمة". ربت خالي على ظهري مبتسمًا يزكيني لهاشم "صلاح ده صغير بس جدع".

أحاطني هاشم بنظرته المرهقة الضجرة اللطيفة مع نصف ابتسامته الثابتة بمرارة وسخرية. وقال وهو ينكش شاربه الكث "تمام. صلاح بقى مننا". اتجه إلى المطبخ محدثًا خالي "طبعا لازم نخلص من الانجليز الأول وبعدين بقى نفضى للضباط أولاد الوسخة بتوع الثورة، ح نعلقهم من عرقوبهم واحد واحد".

كان هاشم في نحو الثلاثين. طويلاً نحيفًا سهوان يمشي من دون صوت. عاش على تدريس اللغة الفرنسية لتلاميذ المنطقة معتمدًا ليس على معرفته باللغة، بل على ما تتركه أناقته ونظرته اللامبالية الكسولة من انطباع بأنه من المستحيل على شخصٍ بهذه الدماثة ألا يعرف الفرنسية! في الواقع كان أخصائيا بالفطرة في كسب

مودة كل من يلقاه من أول لحظة ومن دون أي جهد، أما الفرنسية فكان يتعلمها أثناء التدريس للأولاد.

وقعت عيناي على كتب مبعثرة ملقاة على الكنبة مثل "أصول الفلسفة". ورواية "الأم" لجوركي، كتيب صغير بعنوان "ما هي الاشتراكية"، وكتاب ضخم عليه صورة رجل بذقن بعنوان "ماركس الثوري". قلت لنفسي هذا هو إذن "ماركس" الذي يلعنه جدي كل يوم.

خرج هاشم من المطبخ حاملاً طبق فول مدمس وعدة أرغفة وخلفه خالي حسين. جلس هاشم ووضع الطبق والخبز على المنضدة ومد يده فسحب من تحت الكنبة زجاجة نبيذ نصف ممتلئة. مسح فم الزجاجة بكم قميصه وتناول رشفتين، ثم ناولها لخالي. راحا يأكلان ويشربان بنهم وهما يواصلان النقاش حول ضرورة التطوع لمقاومة العدوان الثلاثي. ولاحظت أن غضبهما على المعتدين يزداد بالدرجة التي يتناقص بها النبيذ، وعندما فرغت الزجاجة تمامًا نظر هاشم إلي قعرها قائلاً "سفلة" يقصد المعتدين. قال خالي وهو يلوك لقمة "بالتأكيد مواجهة العدوان هي المهمة الوطنية الأولى الآن، وبعد كده البرجوازية المصرية. الآن لابد من صد العدوان بالتحالف بين الجميع، الاتحاد السوفيتي تحالف مع أمريكا عشان يواجه هتلر". علق هاشم "كويس إنك فكرتني بحكاية هتلر دي" وخلع جوربه ومدد ساقيه فوق المنضدة. عاد بظهره للخلف. أغمض عينيه وأخذ يحرك أصابع قدميه في الهواء.

قال حسين: إحنا مش ح نتصل بالحزب بقى؟ عاوزين نبقى جزء من العملية؟

تمتم هاشم بعينين مغمضتين:

– إمبارح كان عندي اجتماع مع الراجل الكبير.

تساءل حسين:

– الرفيق سعد؟

رفع هاشم رأسه:

– سعد مين؟

أجابه حسين:

– مش أنت قلت إن سعد هو الراجل الكبير؟

رفع هاشم حاجبيه مدهوشًا يتذكر:

– آه.. سعد. لأ.. سعد ده متوسط، يعني تقريبًا لجنة مركزية على ما أظن. لكن امبارح كنت مع الرفيق الكبير رؤوف. ده اللي ماسك العملية كلها. كلمته عنك وعن محمود وقلت له عاوزين نرتب وضعنا خصوصًا في ظروف الحرب اللي احنا فيها.

تساءل حسين باهتمام:

– وقال لك إيه؟

أجابه هاشم:

– قال لي أنت معروف لنا يا هاشم من زمان. لكن بالنسبة للرفاق الجدد ننتظر شوية عشان اليومين دول الجو كله قلق.

سمعنا طرقًا على الباب. نهض خالي حسين وفتح. رأيت امرأة بجلباب تغطي فمها بطرف طرحتها. راعية غنم كانت في البداية تأتي من الغيطان القريبة وتجلس تحت البيت بمعزة تحلبها أمامهم وتبيع لهم كوز حليب طازج. استدرجها حسين في يوم حار للدخول إلى الشقة وصارت تتردد عليهم تطبخ وتغسل وتنظف وبالمرة تبيع كوب الحليب.

دخلت المرأة إلى المطبخ وسمعنا صوت ماء الصنبور واصطكاك "المواعين" بالحوض. بعد قليل ظهرت في فتحة باب المطبخ وأشارت بيدها لهاشم. نهض واتجه نحوها. سمعنا من بعيد غمغة وكلمات مبهمة ثم عاد هاشم إلى الصالة يضرب كفًا بكف. قال "ده كلام؟ مش كفاية الولية بتيجي تنضف لنا الشقة؟ كمان حد يحبلها؟!" طقطق بلسانه وأضاف "لأ لأ.. كده يبقى كتير قوي. أنا عاوز أعرف بقى.. مين اللي حبلها؟".

وقف حسين مندهشًا:

– حبلها إزاي؟

قال هاشم:

– حضرتك مش عارف واحد يحبل واحدة إزاي؟

ارتبك حسين:

– لأ.. قصدي.. أنا قصدي مين اللي عمل كده؟

قال هاشم:

– ما ده سؤالي برضه يا سي حسين.

بعد قليل ظهر محمود. كان معه نسخة من مفتاح الشقة فدخل بهدوء وجلس.

سأله هاشم:

– معك فلوس نجيب إزازة نبيذ؟. هز محمود رأسه بالنفى. حكى له هاشم حكاية "الولية الحامل". اندهش محمود. نهض ونادى عليها. جاءت من المطبخ وكفها تغطي فمها بطرف الطرحة احتشامًا.

سألها محمود:

– إيه اللي حصل يا سميرة؟ ما إحنا مع بعض من زمان وعارفين النظام؟.

جلست على الأرض وقالت:

– مش عارفه. واحد منكم والسلام. أنا جئت من حوالي أسبوعين بالليل حد فتح لي الباب. ما ولعش النور. وحصل اللي حصل في الضلمة.

سألها هاشم:

– حسين؟

قال حسين:

– محمود.. صح؟

قال محمود بتردد:

– هاشم ولا مين؟!

جالت المرأة ببصرها في الرجال الثلاثة وهي تزر عينيها متطلعة إلى كل منهم بشك. قالت:

– مش عارفه.

طأطأت رأسها بخجل وقالت :

– هو كان طول الوقت عمال يقول لي يا روحي عليكِ.

سكتت لحظة وقالت "أنا أقدر أعرفه". نظرت لمحمود "قول يا روحي عليك كده يا سي محمود؟". قال محمود بتثاقل "ياروحي عليكِ". رفعت رأسها "لأ قولها بقلب. قولها بقلب زي ما كان بيقولها". صاح فيها هاشم "هو نجيب الريحاني ح يقول بقلب"! لزمت المرأة الصمت. بدا عليها أنها تفكر. ثم سألت

– هي العمارة اللي جنبكم أربع أدوار برضه؟.

قال هاشم :

– يا نهار أبوك أسود يا بنت عم محسن .. أنتِ ملخبطة في العمارة كلها؟!

نهضت وهرولت إلى المطبخ وهي تبرطم.

قال محمود متعجبا: ماحدش بيدخل الشقة غيرنا احنا التلاته!

قال حسين: وهو تلاته قليل؟

قال هاشم "إذا كان حد عمل كده واتصرف من دون حذر يعمل نقد ذاتي يا زملاء". ساد الصمت. قال هاشم "طيب يعمل نقد ذاتي في سره ويخلصنا. عندنا مواضيع تانية في جدول الاجتماع". جلس الثلاثة. فجأة صاح هاشم "يمكن عبده كمنجة؟. أنا كنت أعطيته نسخة من مفتاح الشقة؟ تلاقيه رجع مرة من الكباريه وهو سكران وحوّد على الشقة؟". أضاف "الندل انتهز فرصة الحرب على أساس أن الحرب خدعة. على كل حال ح يبان. طيب النقطة التانية في الاجتماع. أنا قلت لكم إني كنت قاعد إمبارح مع الرفيق الكبير. واتفقنا نعمل منشورات في كل مكان ندعو للمقاومة الشعبية وده ح يحتاج شوية فلوس". قالها ونظر للزجاجة الفارغة. قال

حسين "ممكن نمر على مصطفى الضبع صاحبي نأخذ منه تبرع". قال هاشم بسعادة "ممتاز. نروح له وبعدين نرجع ونقعد نفكر ح نعمل إيه وح نكتب إيه في المنشورات". نهض الثلاثة فنهضت معهم. صاح هاشم ليصل صوته للولية في المطبخ "لما تخلصي تنظيف ابقى اقفلي الباب وراكِ".

خرجوا من الشقة وأنا خلفهم. عدتُ على الطريق وحدي إلى بيت جدي. لم ينقض أسبوع حتى اختفى هاشم وبعدها بأيام سمعت خالي حسين يحكي لمحمود أن هاشم توجه إلى المطرية، وتنكر مع آخرين عند شاطيء بحيرة المنزلة في ملابس صيادين وتسلل معهم في قارب إلى بورسعيد ومعه حقيبة منشورات. في بورسعيد كانت الثورة قد وزعت البنادق على الأهالي لكنها كانت تلقيها في الشارع كيفما اتفق وهي مازالت مشحمة، وكان البعض يجد بندقية ولا يعثر لها على ذخيرة أو يجد ذخيرة من دون بندقية. اضطر المئات من الأهالي من النساء والرجال إلي مواجهة قوات المظلات بكل ما وقع تحت أياديهم من أدوات بدءًا من أواني المطبخ إلى السكاكين والمطارق. هناك وقف هاشم في حي العرب وسط الحشود رافعًا عمودًا حديديًا يهتف "ما تخافوش يا رجاله.. إحنا ح نعلق أولاد الوسخة الانجليز من عرقوبهم". وتوفى واقفًا بشظية ولم يكن قد مضى على وجوده في بورسعيد سوى ثلاثة أيام. كان حسين منفعلاً وهو يحكي ويؤكد لمحمود أنه سيجد سبيلاً ليتجه هو الآخر إلى بورسعيد. بالفعل اختفى حسين ولم يرجع إلا بعد هزيمة العدوان. رجع وقد هزه موت هاشم بعنف، وغمر نفسه في النشاط السياسي داخل الكلية وتبعه في ذلك خالي محمود فألحقه جدي بالمطرودين من البيت المغضوب عليهم يائسًا من أن يكون لولديه أي مستقبل محترم من النوع الذي خطط له جدي، لم يحتمل العجوز بعد ذلك الحياة مع آمال محطمة تحت سقف واحد، فطرد من البيت حتى ابنه الأصغر عبد الجواد العاكف على دراسته خوفًا من مصير أخويه. قال له حين أنهى عبد الجواد الثانوية العامة "الآن نلتَ شهادة فاعتمد على نفسك"، وطرده إلى المجهول غير آبه بدموع جدتي. بسبب أو بفضل الذعر أصبح عبد الجواد الوحيد من بين أبنائه الذي أنهى تعليمه، بل وحصل على شهادته الجامعية بتفوق رشحه للعمل في مصلحة الاستعلامات، لكن خوفه الطويل وقسوة جدي اليائسة تركت فيه أثرًا غائرًا. فيما بعد كنا نراه من وقت لآخر في مناسبات عائلية في بدلة مغلقة الأزرار وبكرافت خانقة فيبدو أشبه بسمكة محنطة مغطاة بقشور المعرفة. يأتي ويجلس صامتًا تقريبًا وقد وضع ساقًا على ساق يهز رأسه فيما يشبه الكبرياء ويبتسم ابتسامة المزيج الغريب المتشنج من البكاء والضحك الجاف. وسرعان ما وجد لنفسه امرأة من نوعه فاقترن بها وأنجبا ابنين بهدوء النباتات وهي تطرح ثمارها، بينما كان أخواه حسين ومحمود

يحترقان في لهب الاعتقاد بأن الإنسان قادر على تحدي العالم، حتى لو كانت المحاولات التي بذلها الاثنان قد جرت بدوافع ذاتية أو قامت على حماسة غير مدروسة أو في فورة الروح الشابة، الفورة التي تحدث مرة واحدة في العمر ما إنْ تُفتح قارورة الشباب، ثم يظل الإنسان بعد ذلك يجمع رذاذها الملون من ذكرياته.

لم تطل إقامتنا في بيت جدي. خرج والدي من المعتقل فانتقلنا إلي شقة مستقلة في شارع مجاور، وظل البيت بسنجة الترموای في شارع السروجي زمنًا طويلاً، يتهدم ببطء مثل سفينة تغرق في الزمن، من دون أن يوليها أحد اهتماما.

***

سماء ضائعة

صباح يوم مشمس، منذ قرون طويلة، تحت ظلال قلعة ضخمة، حدث أن عصفورًا صغيرًا راح يتواثب بين أقدام جنود وسقائين وباعة بعربات يدوية وهو يضرب بمنقاره ليفسح لنفسه مجالاً. صبي كان يمشي يده بيد أمه لمح العصفور فصاح مدهوشًا "عصفور على الأرض"! جذبته أمه فواصل السير إلى الأمام وهو يتلفت خلفه. بعد قليل توقفت الأم عند خان متواضع لتبادل بقمحها مترين من القماش. وبينما هي تساوم التاجر وصل العصفور إلى الخان، فانحنى الصبي وقرب فمه من رأس العصفور مستفسرًا منه "لماذا تمشي على الأرض؟ أنتَ عصفور فلم لا تطير؟!". أشاح العصفور ببصره في ناحية، ثم قال وطرف جناحه يرتعش بأسف "كنت أود أن أطير لكن ليس ثمت سماء". قالها وأطرق لحظة، وعاد يشق طريقه بين أقدام السائرين بوثبات قصيرة سريعة. تطلع الصبي إلى أعلى يتحقق من قول العصفور إنه "ليس ثمة سماء" فشاهد فراغًا غائمًا.

منذ ذلك اليوم جرى نهر الزمن، طويلاً، وتعاقب على سطحه ملوك وأمراء، عمت فيضانات واندلعت حروب وتفشت أوبئة وارتفعت مصانع وشيدت جسور، وتوهجت واحترقت مليارات المشاعر، واعتادت سلسلة من أحفاد العصفور أن تكون سماؤها برك المياه في الشوارع. زمنًا بعد زمن ألفت مناقير العصافير أن تضرب الأسفلت بحثًا عن فتات الطعام وقطرات من الماء. وجرى نهر الزمن أبعد فأبعد حتى اختفى في الزمن، فتحولت أجنحة العصافير إلى أذرع، والسيقان الدقيقة إلى أرجل غليظة، وكبرت الصدور لتغدو رئات تنفخ الهواء بضجر. ثم جرى نهر الزمن حتى أنه لم يعد بوسع أحد، كائنًا من كان، أن يتعرف إلي العصافير القديمة التي صارت تمشي بالبذلات والفساتين وترفع في الريح مظلات تحميها من المطر.

اليوم قبيل الغروب بقليل وقف عصفور بقميص نصف كم وسروال أزرق أمام محل يسأل صاحب المحل عملاً. أجابه الرجل من دون أن ينظر ناحيته "لا توجد وظائف". أحبطه الرد فمكث في مكانه مهمومًا. استدار وتابع سيره على الرصيف يغمغم لنفسه. رأى محلاً آخر مفتوح الأبواب. سأل عملاً أي عمل. لم يجد جوابًا. تلفت حوله فى حيرة. توقف آسفًا يتأمل حياته. وفجأة سرت على سطح جلده ارتجافة الريش القديمة في السماء المفتوحة. اندفع إلى الأمام مشتعلاً بالحزن واليأس، وأخذت خطواته تصبح نزقة متلاحقة أقرب إلى خطوات جده العصفور الأول، ثم تصلب أنفه كالمنقار يزاحم به السائرين. وخايلته حبة قمح واحدة وقطرة ماء، ثم هزته إلى الأفق

فطرة عريقة فشب على أصابع قدميه ورفرف بذراعيه لأعلى بحثًا عن السماء الضائعة.

***

قرب البحر

كنتُ أقف في بهو فندق "بتش هوتيل" مع كاتب سوري حين أقبل علينا رجل في نحو الستين قصير القامة بـ"جاكت" أبيض و"كاسكيت" على رأسه. قدمه السوري إليَّ قائلاً "إياس تاشفين. شاعر مغربي". حياني "إياس" بهزة رأس وهو يتفحصني بنظرة تلمع بفضول عابث ضاحك، وأخذ يستفسر عن موعد جلسات المؤتمر. كان ذلك بعد ساعات قليلة من وصولي إلى مدينة "تروفيل" الفرنسية.

في المساء قررنا القيام بجولة في شوارع المدينة. أخذنا جمال شوارعها النظيفة ومبانيها القديمة المنخفضة. تمشينا بمحاذاة شاطيء بحر "المانش". على سطح البحر ارتجت أمامنا مراكب الصيد بأشرعتها، وراحت هبات الريح المتدافعة إلى الرصيف تطوق أقدامنا. سرنا طويلاً وإياس يثب مرة إلى جانبي، ومرة إلى جانب السوري يستوثق من أننا ننصت إلى حكاياته عن الأدباء الذين أحبوا هذه المدينة بدءًا من "فلوبير" حتى "مارجريت دوراس"، وعن دواوينه وقصائده التي غيرت على حد قوله مجرى الشعر. كان يقطع حديثه بنكات أقرب إلى الحكايات الريفية التي تنتهي بعبرة. لم يكن ما يقوله مسليًا لكنه كان ينفجر ضاحكًا بعد كل حكاية فأبتسم ويطلق السوري بوقار قهقاته بفاصل زمني ثابت. عدنا إلى الفندق مرهقين وتبين أن إياس يسكن معي في الطابق ذاته.

صباح اليوم ألقى إياس كلمة بالفرنسية في جلسة المؤتمر الافتتاحية. تحدث عن العولمة وظهور ثقافة إنسانية جديدة وزوال الحدود الوطنية والفكرية. كان يتكلم وجلد وجهه يرتجف من الانفعال كأنما سينزلق عن وجنتيه وعيناه الصغيرتان تدوران بقلق. اختتم بقوله "صرنا جميعًا أبناء وطن واحد هو الأرض". هبط من عند المنصة فصافحته مهنئًا بكلمته وقلت له "أشعر بضغطي منخفض. سأعود إلى الفندق وأستريح". قال "سأرجع معك". وصلنا الفندق وقبل أن أفتح باب حجرتي رجاني إياس "دقيقة واحدة ". دخل حجرته. عاد بسرعة وبيده ديوان من قصائده عليه إهداء بخط يده. شكرته. أغلقت الباب خلفي. اغتسلت ثم رقدت على السرير. كنت مرهقًا لكن شيئًا ما أغراني بتصفح الديوان. كانت قصائده أشبه بشظايا روح تتحطم. مازلت أذكر منها بيتًا: "حول خطأ ما تدور هذه الأرض". على السرير وبعينين نصف مغمضتين استحضرت وجه إياس. تلاشى فجأة انطباعي عنه بأنه شخص مضجر، ورأيت فيه للمرة الأولى اختلاجة خفيفة تدعو للتعاطف.

استيقظت بعد أربع ساعات. كانت الحجرة تسبح في عتمة خفيفة. أرسلت بصري من النافذة إلى البحر تحت السماء المطفأة. هبطتُ إلى أسفل. رأيت "إياس" في بهو

الفندق جالسًا على مقعد في قميص بمربعات ملونة وسروال بالكاد غطى ركبتيه. شاهدني فنهض بسيجارة في فمه وفنجان قهوة بيده. ضحك بنظرته المعابثة "نمت طويلاً يا عزيزي؟". قلت "أنا عجوز يا إياس لا أتمتع مثلك بحيوية المغاربة". رسم تعبيرًا جديًا على وجهه وقال "إن كنت تقصد أن والدي مغربي فلن أفيدك بشيء. أمي وحدها من يعرف الحقيقة"! وانفجر مقهقهًا بسعادة التحرر المؤلم من كل شيء، حين لا يبقى شيء ما محصنًا من السخرية.

خرجنا معًا إلى ساحة الفندق الأمامية الواسعة. كانت مضاءة بقوة كأننا بالنهار. سرنا في اتجاه الشاطيء والأنوار تنسحب من خلفنا. بلغنا مقهى مفتوحًا تحت السماء. جلسنا على مقربة من البحر. ساقني الغروب المضاء بنور القمر إلى جذوري التي أعتمت في الزمن والبشر. أحسست كأن شيئًا ما في حياتي غائم ملتبس، اعتدته ولكني لم أفهمه حتى النهاية. قلت لإياس "اقرأ لي من أشعارك". أجابني "لكن معظم قصائدي عن الحب؟ أتعرف يا أستاذ أنت تدخل الحب بمخالبك وتخرج منه وعظامك مطحونة. أحببتُ وتزوجتُ ثلاث نساء: مغربية وفرنسية فإنجليزية. في البداية كانت السعادة تغمرني ثم تؤلمني دموع النهاية في كل مرة. لكني لست نادمًا. ولم الندم؟ أنا أحيا حياتي. أرحلُ من بلد إلى بلد. أعشقُ النساء أينما كن. أقرأ وأكتب، لا زوجة، لا أولاد، لا أحد يعطلني". أطرق برأسه لحظة غاب فيها عما حولنا. ثاب إلى نفسه وتطلع إليَّ بشقاوة طفولية "غدًا لن نحضر جلسات المؤتمر؟". قالها كأنما يطلب منى تصريحًا بذلك. أجبته "أنا لن أحضر". ضرب فخذه بيده مقهقهًا "والله أنت عظيم يا أستاذ!". أخرج بعناية صورتين من جيبه "انظر هذه إسبانية. وهذه الرائعة إيطالية. ما رأيك؟ الجمال هو كل شيء. صحيح يا أستاذ؟".

أخذنا ندخن في صمت ونحن نتأمل سطح البحر القاتم يلمع بومضات القمر. همس إياس "ألا تحب أن تستمع إلى قصة حقيقية؟". قلت "بلى". دفع الكاسكيت للوراء "أنا من قرية صغيرة بشمال المغرب. والدي، بعبارة أدق من سيغدو والدي، بربري فقير كان يصبغ الخيش بلون أحمر ويخيط منه قمصانًا لرعاة الغنم، فأطلقوا عليه الرجل الأحمر. في ذلك الوقت، ولاحظ أني أحكي عن ثلاثينيات القرن الماضي، كان يعيش في القرية رجل بربري يدعى "أمجار"، التحق في شبابه بالجيش الفرنسي وترقى إلى عقيد. أصبح من الأثرياء. صارت عنده خيول وأراضى ودار كبيرة. ذات مساء، والأماسي جميلة بين جبالنا، كان "أمجار" جالسًا في شرفة داره مع صديق مقرب له يدعى"ماسين"، وتصادف مرور حائك القمصان أمام الدار. ابتسم ماسين يعابث العقيد "ما رأيك يا "أمجار" لو زوجتَ ابنتك إلى الرجل

الأحمر؟". نفث أمجار دخان نرجيلته مبتسمًا "لم يكن ينقصني إلا هذا البائس". اتسعت ابتسامته ونادى ابنته تونازوز. جاءت ووقفت بين يديه. سألها "ما رأيك يا تونازوز لو زوجناك من الرجل الأحمر؟". لم تفهم تونازوز أن والدها يداعبها، إما لأنه باغتها بالسؤال، أو أن وجود "ماسين" وهو رجل غريب شوش عليها إدراكها، على أية حال فإنها انفعلت بحدة "أنا أقترن بذلك المنحوس؟ هذا من سابع المستحيلات". أسخطت تونازوز والدها بذلك التحدي. أطرق لحظة يشحذ فيها قراره رفع رأسه بوجه معتم "وأنا أقسم بالله أنكِ لن تتزوجي غيره". ترجاه ماسين بنبرة المذنب "كنت أمزح معك يارجل"! وقف "أمجار" وزعق به "اتجه الآن، فورا إلى كوخ الرجل الأحمر وأبلغه أن العقيد يقبل به زوجًا لابنته". لم يصدق حائك القمصان النعمة التي هبطت عليه حتى أعادوا عليه الكلام خمس مرات. هكذا تزوجت أمي بدموع عينيها. لكنها ما إن وطأت أرض الكوخ المتهالك حتى صاحت في والدي "تزوجتني لكنك لن تمسني مادمت حية"!

انقضت الشهور ولا حديث للقرية غير أن أجمل البنات اقترنت بأقبح الرجال. شهور تنام "تونازوز" وتصحو باكية تؤرجح رأسها بأسف، إلى أن هبط شتاء واشتد رعده ذات ليلة. لمع برقه. راح مطره يجلد أسطح البيوت بجنون. في تلك الليلة رأت تونازوز في منامها أنها تسكن دارًا كبيرة أبوابها وشبابيكها مطلية بالأخضر، وأنها تنظر من شباكها إلى حديقة تحت دفء الشمس، تخرج بهدوء وتجلس تحت شجرة تفاح. تمد يدها لأعلى تقطف واحدة. تحل عليها آلام المخاض. تنجب صبيًا يضرب بذراعيه في الهواء أمام عينيها ويحلق طائرًا إلى حديقة أخرى، ثم يرفرف مختفيًا بعيدًا مع الطيور الأخرى. استيقظتْ بوجه متشنج تبكي وترتجف. وجدت والدي يراقبها من ركن وخده إلى قبضة يده. دموع الفزع في عينيها شجعته، وهو الذي لم يكن يجرؤ على النظر إليها، على أن يتقدم نحوها. طوقها بذراعيه ومسح بحنان على ظهرها. في ليلة الحلم تلك أسلمت تونازوز نفسها للرجل الأحمر، وصرتُ أنا حقيقة. أنجبتني أمي في حقل مفتوح تحت الريح. بعدها صالحها جدي أمجار. اشترى لها دارًا كبيرة خضراء. في السادسة من عمري التحقتُ بالمدرسة. تعلمتُ الفرنسية لكني أيضا كنت أدرس العربية بشغف. مبكرًا شرعت أكتبُ قصائدي الأولى الساذجة. كان المعنى يخامر شعوري باللغة البربرية التي تشربتها مع حليب أمي، فأترجمه إلى العربية، ثم إلى الفرنسية الشائعة لكي أقرأه على أصدقائي. أنهيتُ تعليمي واشتغلتُ في إحدى الصحف، وفيها تعرفتُ إلى زميلة مغربية فارتبطنا. عشنا معًا سنوات إلى أن كان يوم أقيم فيه مهرجان أدبي كبير في العاصمة حضره شاعر لبناني استوطن باريس. أثنى على قصائدي ودعاني إلى النزوح إلى أوروبا. انفصلتُ عن زوجتي، ورحلت.

أقمت سنوات في باريس وتركتها إلى لندن ثم إلى روما. ضربت بجناحي حرًا من سماء إلى سماء ومن أرض إلى أرض.

سكت إياس لحظة "أليس هذا ما رأته أمي في المنام؟". تطلع إليَّ. سألني بصوت معذب "هل كانت حياتي تجسيدًا لحلم امرأة تحت سطوة البرق؟". لزمتُ الصمت أفكر في سؤاله. ارتعشتُ من برد البحر وهو يدفق علينا هبات ريح كنت أراها تخفق داخل سترة إلياس المفتوحة. استند إلياس بمرفقيه إلى سطح المنضدة. دفع حافة الكاسكيت للخلف. بان رأسه أصلع مثل طائر تعرى من ريشه. ضغط وجهه بكلتا يديه ونهنه باكيًا. لم أدر ماذا أفعل. ارتبكتُ. أحس باضطرابي فمد يده إلى يدي يعتصرها وكتفاه ترتجان "لو كان لي وطن يا أستاذ لكان دفقة من ريح". أردتُ أن أهون عليه "أنت نفسك قلت إننا جميعًا صرنا أبناء الأرض؟". تمتم بصوت متقطع "لكن ألا يحتاج الإنسان إلى كينونة يدركها ليعرف ما الذي يذوب منه في الأرض بحيث يغدو ابنًا لها؟". كان الوقت قد تأخر. ولم يعد في السماء الداكنة سوى نجوم قليلة تلمع بضعف. نهضنا ببطء نقطع الممر المبلط عائدين إلى الفندق من دون أن نتكلم. صافحته عند باب حجرتي. حاول أن يبتسم وهو يهز رأسه كالمعتذر "أطلت عليك في الحديث". عندما رقدت على سريري أتأهب للنوم انتابني شعور مبهم بأن حياتي غريبة عني. استرجعتُ القصة التي رواها لي إياس عن حياته. أهي حقيقية ؟ أم أن إياس قد اختلقها ليعبر عن الحقيقة كما يتصورها هو؟

في اليوم الأخير من وجودنا في "تروفيل" تبادلت مع إياس أرقام الهواتف والبريد الالكتروني. قال لي إنه سيسافر إلى لندن ومنها إلى روما. عانقني وتوادعنا عند باب التاكسي وأنا أتجه إلى المطار. بعد نحو شهر جاءتني منه رسالة إلي القاهرة، ثم انقطعت أخباره طويلاً إلى أن قرأتُ منذ يومين نبأ وفاته في برشلونة وحيدًا داخل حجرة بفندق. تذكرت عينيه اللامعتين وبكاءه عند البحر. تخيلت أنفاس الموت تنزلق على جدران حجرته وتسرى لتطوقه وحيدًا في سرير بارد. هل حدق بحياته في الفرصة الأخيرة ليجد ما تبدد منه؟ أم أن فزع الروح من النهاية أسلمه إلى لوثة سخرية من كل شيء؟ أم تراه نهض يودع العالم من نافذة حجرته معزيًا نفسه بأنها الرحلة الأخيرة إلى كينونة أبدية؟

***

طرح القلب

استيقظ قرب الفجر على رائحة نفاذة تغشو رئتيه. عطر رقيق من ورد أو تفاح طفا فوق الهواء الساكن. تربع جالسًا على السرير. دفع أنفه إلي الأمام، دار به يمينًا ويسارًا ليستدل على مصدر الرائحة. حدق بغبشة الليل لحظة ولاحت له عيناها من لفائف العتمة مثل نور رفيق، كأنما تحدثه وتهـ ـوّن عليه. فجر الليلة التالية استيقظ قرب الفجر على ذلك الأريج ينسرب من الهواء. طوقه الشذا مثل قبلات طفولية ناعمة. مال برأسه على الوسادة وتشممها. وجد العطر يفوح من قطنها. استنشق ياقة منامته فلقى العطر في قماشها. من أين توافيه هذه النفحة الرهيفة؟. ليلة بعد ليلة تضوع الفوح الهامس مثل نداء يسرى من الحديقة. هذه الليلة قام من سريرة. هبط على درج الشرفة الأمامية نعسان يتلمس طريقه ساعة السحر. كانت سماء الحديقة شاحبة تلمع فيها عدة نجوم. والسكون يلف أشجار السرو، والمانجو، وشجيرات الورد القصيرة. السياج القديم مغلق بالسلسلة والقفل. وثبت بين قدميه قطة تموء. مكث مكانه وندى الفجر يبلل كتفيه. رفع كفيه لأعلى وقربهما من أنفه. انبعث منهما ذلك العطر كأنما يسكن الجلد والعظم. أطلق زفرة طويلة فشم في أنفاسه المرسلة العطر ذاته. أدرك أنه هو مصدر ذلك الفوح. توقف بين شجيرات الورد وقد أحس القلق والتيه. قرر أن يرجع إلي البيت. حاول أن يتحرك فلم يستطع. شعر أن قدميه وساقيه قد تخشبت، حاول أن ينتشل قدميه من الأرض فلم يفلح. هتف متضرعًا "يا إلهي". أحس أن أصابع قدميه تطول وتشتبك بالتربة. تتفرع جذورًا تنغرز في أرض الحديقة. حاول أن يلوى عنقه فلم يتمكن، ثم رأى ذراعيه تستطيلان لأعلى كفرعين بزهور صغيرة، وما لبث الورد أن نبت من خصره وصدره وعنقه. أيقن الآن أنه غير قادر على أن يبرح مكانه. لاحت له عيناها لحظة، ثم راح في نوم عميق، نسي فيه كل شيء. في الصباح مر البستاني يروي الحديقة. لاحظ شجيرة ورد لم يرها من قبل. شجيرة غريبة تشبه إنسانًا يطرح وردًا. استنشق البستاني عطر الورود فدار رأسه واشتعلت روحه بغرام قوى مبهم، فغادر المكان لا يدري إلي أين يذهب بالنار التي في قلبه.

يومًا بعد يوم، عامًا بعد عام، راح الناس يتناقلون الحديث عن الشجرة. قال الفتيان والصبايا في القرية إن كل من يجلس تحت جذعها ويستنشق عطرها يغدو متيمًا مولعًا. عامًا بعد عام أمست الحديقة مزارًا في الأمسيات المقمرة. تشبع هواؤها بتنهدات الصبايا، وأحلام الفرسان. وعرفها سكان الجبال والقرى النائية باسم "طرح القلب". مازالت الحديقة مزهرة إلا أن البعض يعبر الآن بجوارها مسرعًا فلا يراها.

فهرست

1- أنا وأنتِ..... 3
2- روح الضباب..... 5
3- ليلة بلا قمر..... 15
4- النور..... 19
5- بالميرو..... 21
6- سأفتح الباب وأراك..... 25
7- وجه..... 31
8- آليونا..... 33
9- خطوبة..... 49
10- الصبي الذي يأكل الماء..... 53
11- مرآة..... 57
12- بيت جدي..... 59
13- سماء ضائعة..... 87
14- قرب البحر..... 89
15- طرح القلب..... 93

الكاتب :
د. أحمد الخميسي

قاص وكاتب صحفي. مواليد القاهرة 1948. دكتوراه في الأدب الروسي جامعة موسكو عام 1992. عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر. عمل في الصحافة بدءًا من عام 1964. ظهرت قصصه القصيرة في العام ذاته في المجلات المصرية. قدمه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة الكاتب المصرية عام 1967.

. عمل أثناء وجوده للدراسة في روسيا مراسلاً صحفيًا لجريدة الاتحاد الإماراتية وإذاعة دولة الإمارات من 1989 حتى 1998، ثم من القاهرة مراسلاً لمجلة الآداب البيروتية ثلاث سنوات من 2006 حتى 2009.

. كرمه اتحاد الأدباء العرب لدوره في ترجمة الأدب الروسي إل ى اللغة العربية. كرمه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب.

. حاز جائزة "نبيل طعمة" السورية عن مسرحيته "الجبل" عام 2011

. جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية "كناري" كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام 2011.

. يكتب في الصحافة المصرية والعربية بانتظام .

أعماله:

القصصية:

1. "الأحلام، الطيور، الكرنفال" مجموعة قصصية . الهيئة المصرية . 1967 مجموعة بالاشتراك مع أحمد هاشم الشريف وأحمد يونس

2 – "قطعة ليل" مجموعة قصصية . دار ميريت بالقاهرة . يوليو 2004. وصدرت منه طبعة ثانية عن كتب خان.

3 – "كناري" مجموعة قصصية مؤلفة . كتاب اليوم أخبار اليوم . ديسمبر 2010 . حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام 2011

4. "رأس الديك الأحمر" . مجموعة قصصية مؤلفة . كتب خان . القاهرة . ديسمبر . 2012

5. "الأجيال الثلاثة" مجموعة قصصية آنا أحمد الخميسى . أحمد الخميسي . عبد الرحمن الخميسي . دار كيان . القاهرة . يناير 2015.

الترجمة:

1. "معجم المصطلحات الأدبية" ترجمة عن الروسية عام 1984

2. "المسألة اليهودية" للأديب العالمي دوستويفسكي . مجلة أدب ونقد . العدد رقم 69 . مايو 1991، وأعادت مجلة "زرقاء اليمامة" عام 1996 نشر نفس الترجمة، ثم تضمنها كتابه "أوراق روسية".

3. "كان بكاؤك في الحلم مريرا" قصص مترجمة عن الروسية . دار المستقبل . 1985 .

4. "قصص وقصائد للأطفال" ترجمة . اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1998 .

5. "نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق" ترجمة وإعداد . دار الثقافة . 1989 . وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.

6. "أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج" . تقديم وترجمة. 1991 . مكتبة مدبولي.

7. "نساء الكرملين" . مكتبة مدبولي . 1997 .

8. "رائحة الخبز" . قصص مترجمة . هيئة قصور الثقافة . .1999

9. "لقاء عابر" قصص روسية مترجمة . كتاب اليوم الأخبار. فبراير 2014

مسرحية:

1. "الجبل" مسرحية . هيئة قصور الثقافة . 2011. فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام 2011

سينمائية:

1. حوار فيلم "عائلات محترمة" عام 1968

2- حوار فيلم "زهرة البنفسج" 1972

دراسات :

1. "موسكو تعرف الدموع" دراسات . كتاب الأهالي . القاهرة 1991 .

2. "الصعود إلى الجبال الشيشانية" . كتاب الاتحاد . دولة الإمارات 1995

3. "الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين" . دار الهلالي القاهرة . 2008

4. "عيون التحرير في الأدب والسياسة" . 2011 . دار كيان . القاهرة

5. "أوراق روسية" . مقالات . كتاب اليوم الأخبار . مايو 2013

. إيميل: ahmadalkhamisi2012@gmail.com